ياسر عرفات (أبو عمار)

في التاريخ الفلسطيني المعاصر، هناك أيام لا تُنسى، لأنها محفورة بحروف من نور ونار على رزنامة الدهر، هناك أيام خالدة تعد علامات بارزة في رحلة حياة الشعب الفلسطيني على امتداد العقود الأخيرة، من حياة الرئيس الرمز ياسر عرفات وتمتد إلى الفترة الحالية بقيادة الرئيس محمود عباس "أبو مازن".

معا، كتبا على صفحة الخلود أياماً خالدة، منها عندما وقف ياسر عرفات على منبر الأمم المتحدة في تشرين الثاني عام 1974 وقال عبارته المشهورة جئتكم حاملا غصن الزيتون في يدي، وبندقية الثائر في اليد الأخرى فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي.

في هذا اليوم سجل عرفات على صفحة التاريخ أنه رجل سلام وقائد ثورة.

وفي سنة 1988 أعلن أبو عمار من الجزائر قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

في عام 1994 عاد أبو عمار إلى وطنه فلسطين، ودخل غزة دخول الفاتحين الأبطال. وها هي أحداث التاريخ تتوافق بصورة دراماتيكية، مؤثرة، فقد تصادف يوم فتح ضريح عرفات مع مناسبة تقدم أبو مازن إلى الأمم المتحدة للحصول على الاعتراف بدولة فلسطين- كمراقب.

هذا التوافق الهام في هذين الحدثين يحمل دلالة تاريخية، لها أبعادها، فروح الرئيس البطل الذي بذل حياته مناضلا ومجاهدا من أجل قيام دولة فلسطين تطل على أرض فلسطين وروابيها وتبارك شعبها وجماهيرها وقيادتها في هذه المعركة الحاسمة.

وها هو أبو عمار يأخذ الشعب الفلسطيني والشعب العربي، بل وكل شعوب العالم، إلى ذلك المنعطف الهام من حياته ورسالته. فهو بطل النضال وبطل العودة، وهو الذي ضحى بدمه من أجل أن تكون فلسطين على خارطة العالم، من أجل أن تكون الجغرافيا حقيقة ملموسة معترفا بها ومسلما بها، فلسطين دولة حقيقية في الواقع لها حدودها وكيانها وشخصيتها، ذلك ما بذل عرفات دمه وحياته من اجل تحقيقه.

ها هم رفاق الدرب، يبعثون له برسالة حب وولاء، فيؤكدون أنهم تسلموا الراية وأنهم على الدرب سائرون، فالقسم هو القسم، والعهد هو العهد وليس ذلك فحسب.

فإن روح أبو عمار التي انبعثت من ضريحه في المقاطعة، كانت تفوح مسكا، حتى بعد ثماني سنوات، ذلك لأن أعظم ما في حياته أنه قضى شهيدا شهيدا.

والعقيد توفيق الطيراوي يؤكد.. أن عظمة الرئيس وجلاله وهيبته وحضوره تجلت في تلك اللحظات الحاسمة، المشحونة بالشجن والدموع والشوق والمحملة برسالة خالدة، لتحرير فلسطين والقدس.. وقد أكد العقيد الطيراوي في المؤتمر الصحافي عندما سُئل ما الشيء المميز الذي لفت نظرك وأنت تشهد هذا الحدث التاريخي الهام؟ فأجاب لقد كانت روائح المسك تنبعث من الضريح.

وأكثر من ذلك.. ها هو الشعب الفلسطيني في جناحي الوطن يستوحي تاريخ الرئيس ومواقفه فلا صوت يعلو على صوت الوطن، كلنا في خندق واحد.. في غزة ورام الله، من فتح أو من حماس.

إن تاريخ الرئيس البطل ومواقفه تفتح ذراعيها، من وراء الأفق لتبارك الوحدة، وتشد على يد الرئيس محمود عباس والقائد خالد مشعل في معركة سياسية لا تقل ضراوة عن المعركة الحربية التي جرت في غزة منذ أيام.

سطوة الزمن لا تمسح الذكريات

مرت ثماني سنوات على رحيله..

ثماني سنوات كاملة بأيامها ولياليها، وساعاتها وسنواتها.. وشهورها وأسابيعها بلا أبو عمار.

أمعقول هذا؟!

كيف انطوت كل تلك السنوات من عمري.. وهو هناك بعيد عن عالمي وحياتي ودنياي؟ كيف أمكنني أن أقطع كل هذا العمر بدونه؟ كيف غافلني القدر وداس على مشاعري وأحاسيسي وأجهزة أعصابي وروحي وخلايا عقلي فسلبني الإحساس بالزمن والحياة والأحياء، فدارت الشمس دورتها الكونية وتعاقب الليل والنهار وغابت مشاعري وداهمتني الحياة.. فإذا ثماني سنوات تمضي بدون أبو عمار؟

كان ملء فضاء العالم

كان الرئيس الراحل يملأ الفراغ الفلسطيني كله: بتحركاته، وخططه، وأعماله ومفاجآته ومناوراته الديناميكية المتحركة، وتنقلاته وأسفاره ومعاركه وخطبه وبرامجه ومقابلاته. بل كان يملأ فضاء العالم كله بشخصيته ومشاريعه وتصريحاته وحضوره الدائم كشخصية عالمية مؤثرة فاعلة، وكقائد رائد على مستوى العالم بأسره وأنموذجا وأمثولة وقدوة لكل شعوب الأرض المقهورة.

كان حاضرا في القدس، وغزة، ورام الله، والخليل، ونابلس، وبيروت، وفي القاهرة وعمان، وتونس، وفي الرياض، والرباط، وصنعاء، وكان حاضرا في لندن وباريس وواشنطن وروما، وكان حاضرا في موسكو وبكين ومدريد وأثينا وفي كل عواصم الدنيا.

كانت فلسطين همّه وهاجسه

لم يكن يهدأ له بال، ولا يقر له قرار إلا إذا جعل من فلسطين الخبر الأول في "مانشتات" جميع الصحف العربية والعالمية.

كان هاجسه الأول الذي يجعله يواصل عمله ليل نهار أن يوقظ العالم كله، ويشهده على الثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني الذي يُسقى الظلم والاضطهاد ويقاسي.. ولكنه يناضل واقفا.. يرفع

بندقيته ليقاتل وهو محاصر ومكبل بالقيود والمؤامرات، والأحلاف والغزاة والمعربدين في دنيا السياسة والناس والحياة.

كان بطلا قوميا عالميا يبدأ حياته في الحادية عشرة ليلا ويواصل عمله حتى ساعات الفجر الأولى متابعا تفاصيل النضال الفلسطيني، ملما بكل أحداث العالم، مشاركا، وفاعلا، ورائدا. كان يملأ دقائق وساعات وأيام رزنامة الشهر لحظة بلحظة وثانية بثانية وبرحيله توقفت عقارب الزمن وتجمد كل ما حولي ومن حولي فكيف غافلني الدهر الخؤون ومرت عليّ ثماني سنوات.

سبعون كتاباً .. والبقية تأتي

حياة الزعيم الراحل حافلة بالأحداث، مليئة بالأسرار، مثقلة بالغموض، رغم أن سبعين كتابا كتبت فيها.. إلا أنها لا زالت تنطوي على عشرات الأسرار، بل مئات الأسرار والمواقف، وهذه إحدى عبقريات أبو عمار بل إحدى مواهبه حيث كان قادرا دائما على أن يثير الفضول ويبعث على التساؤل ويجعل من شعبه وقضية بلاده موضوعا للتساؤل والتشويق والبحث والدراسة.

ولا أقول ذلك مستندة إلى الوهم والأماني ولا من قبيل المبالغة ولكني فقط ألفت الأنظار إلا أن هناك دائما جديدا في حياة الرئيس يجب أن نتوقف عنده لنكتشفه ونتأمله وندرسه.

إنه كالمحيط العميق المتسع المترامي الأطراف الذي ينطوي على كثير من الأسرار واللآلئ والدرر.

منذ اللحظة الأولى لولادته يبدأ لغز عرفات، فهل كان ميلاده في القدس أم في القاهرة؟ وهل هو محمد عبد الرؤوف، أم محمد عبد الرحمن؟ وهل هو قدسي يمت بنسبه إلى عبد القادر الحسيني حقيقة أم هو من آل القدوة الذين لا تزال جذورهم وفروعهم تظلل مدينة خانيونس؟

لغز عرفات يبدأ منذ فجر إطلالته على الحياة.

أين تعلم ودرس في المرحلة الابتدائية، ألم يكن ذلك في رحاب حارات الحرم القدسي الشريف؟ وهل كانت أخته أم والدته هي التي ترعاه؟ وما صلته بوالده في حي الظاهر في القاهرة؟ ومن هم زملاؤه الذين درس معهم في المرحلة الابتدائية والثانوية؟ ومتى التحق عرفات بكلية الهندسة في جامعة فؤاد (جامعة القاهرة)؟ ومتى تخرج؟ ومتى التحق بالكلية الحربية ليصبح ملازما أول؟ ومتى خاض معركة بورسعيد عام 1956؟ وأين عمل في الكويت، أكان ذلك في شركة خاصة أم في وزارة الأشغال في الحكومة؟

ومتى أسس فتح؟ ومتى التقى بصلاح خلف؟ ومتى كان رئيسا لاتحاد طلبة فلسطين؟ وما حكاية الرئيس مع اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر؟

ومزيداً من الملفات والحقائق

وما حكاية عرفات مع الفلوس؟ وكيف كان يؤمن المال اللازم لشراء الأسلحة من بقايا الجيوش المتحاربة في صحراء سيناء بُعيد الحرب العالمية الثانية؟

كل هذه الملفات لا تزال تنطوي على أسرار ومواقف وشخصيات في حاجة إلى أساتذة التاريخ والباحثين: عرفات في القدس، وعرفات في القاهرة، وعرفات في غزة، وعرفات في بورسعيد، وعرفات في الكويت، وعرفات في بيروت، وعرفات في فيتنام، وعرفات في الصين، وعرفات في اليابان، وعرفات في عمان، وعرفات

في دمشق، وعرفات في طرابلس، وعرفات في تونس، وعرفات في الرباط، وعرفات مجددا في غزة وأريحا ورام الله، وعرفات في أثينا، وعرفات في باريس، وعرفات في الفاتيكان حيث التقى البابا إحدى عشرة مرة، وعرفات في كوبا مع كاسترو، وعرفات في برلين، وعرفات في موسكو، وعرفات في الهند، وعرفات في مدريد، وعرفات في مالطا، وعرفات في واشنطن كما كان له حضوره في الجزائر التي شكلت قاعدة انطلاق للثورة الفلسطينية. ولم تكن إسرائيل وخاصة شارون ترتاح إلى رحلات عرفات وخطاباته ونشاطاته عبر عواصم العالم المختلفة وكانت ترى في نشاطاته وتحركاته وزياراته محاولة تحريض العالم ضد إسرائيل، في حين أن أهداف عرفات كانت أنبل من ذلك لأنه كان يسعى إلى نيل الدعم الدولي والاعتراف بالهوية الفلسطينية من خلال ذهابه إلى شتى العواصم والمنابر.

كان علماً على فلسطين

والحقيقة أن أبو عمار كان دائم الترحال والانتقال، يكاد يذرع الكرة الأرضية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وكان تنقله يهدف إلى تعريف العالم بفلسطين ووضعها على خريطة الأحداث.

وكان أسلوبه الذكي المميز في التعامل مع القادة والإعلام واتخاذه الكوفية الفلسطينية رمزا وأسلوبا مميزا يلقى كل التقدير والإعجاب حتى أصبح الشباب في كل أنحاء العالم يتخذون من الكوفية الفلسطينية رمزا للمقاومة والثورية.

لقد غدا أبو عمار رمزا من رموز النضال العالمي، كما كان يقول مانديلا، كان رفيق درب لكاسترو وهوشيه منه وجيفارا وديغول يحتل صفحات التاريخ معهم جنبا إلى جنب كقائد يجسد حضوره وتاريخه أروع الرسالات حيث يدافع بكل كيانه عن الفلسطيني المشرد في المنافي والمخيمات.. كان دائم البحث عن هوية ودولة وأرض لأبناء شعبه وكان يجوب العالم داعيا إلى الاعتراف بالهوية الفلسطينية.

كان دائم الترحال ففي كل عاصمة وفي كل عنوان وعبر كل صحيفة وشاشة وأثير كان عرفات حاضرا وكان يشكل فصلا هاما في تاريخ أمته وحياته بحيث ينطوي على أسرار وبطولات ومواقف تشهد بأن عرفات كان أمة وحده.

وفي كل عاصمة من هذه العواصم عاش عرفات أحداثا خطيرة وشاهد المتغيرات والظروف وحركها وكان حضوره فيها فاعلا، كان الثائر القائد المتحرك بشبابه وحيويته وطاقاته الخلاقة، ولباسه العسكري المتميز وابتسامته المشرقة وملامحه الذكية المميزة ووجهه الوضاء المشرق بالتفاؤل والأمل.

بل كان كتيبة كاملة

لا يمكن لأي إنسان دارس أو باحث متخصص أن يصدق أن عرفات كان إنسانا فردا.. لقد كان قبيلة بحالها، كان مؤسسة متكاملة، بل كان كتيبة مقاتلة، وجبهة نضال متوقدة.. وشعبا ثائرا يحمل البندقية وكوادر متخصصة، متتابعة في القتال والإعلام والسياسة والاقتصاد والاتصالات وكان حضوره فاعلا ومؤثرا في كل هذه المجالات.

في حديث الذكريات يقول عنه وليد جنبلاط: عندما ذهبنا لوداع عرفات في ميناء بيروت عام 1982 كنا نبكي ونحن نودع البندقية الفلسطينية.. وعندما احتضنت عرفات مودعا لم أملك دموعي.. كان صديقا

وأخا ومقاتلا عنيدا ونصيرا وقائدا للحركة الوطنية في لبنان، وكان حضوره رائعا ومتكاملا مع الأحداث والمتغيرات على الساحة اللبنانية. وأضاف جنبلاط: إن من يعرفون حقائق الأمور يدركون أن الرئيس أبو عمار كان وراء تدريب وتسليح وتأهيل "أمل" لتكون في مواجهة العدو.

ويضيف وليد جنبلاط: كان لعرفات حضور مميز إلى حد أنه كان يؤخذ رأيه في اسم رئيس الوزراء اللبناني.. وكانت موافقته شرط وارد في اختيار هذا الرئيس.

إلى هذا الحد كان أبو عمار رجل ثورة ورجل دولة ورجل مواقف.

ألم أقل لكم إن في حياة الرئيس الراحل آلاف الحكايات والأسرار والمواقف والبطولات.

وكان رجل المتناقضات

إن المرء ليعجب حقا كيف يمكن لرجل واحد أن يجمع في شخصه كل تلك المفارقات التي حملها ياسر عرفات، كيف لرجل واحد أن يوفق بين الميكافيلية الذرائعية من جهة وبين التبتل الرسولي من جهة أخرى، بين الوقوف حينا على مشارف التفريط وبين حماية الفكرة بالجسد المنهك والمحاصر حينا آخر، بين اتفاقية أوسلو الكارثية التي عقدها من وراء ظهر المفاوض الفلسطيني، وبين كأس السم التي تجرعها بشجاعة لكي لا يذيل بتوقيعه غياب فلسطين.

وفي حالتي الخطأ والصواب، لم يكن ياسر عرفات سوى عوليس الفلسطيني الذي لم يضيع الطريق إلى إيثاكا الجديدة، ولم نكن نحن نعرف من دونه كيف نقتفي آثار أعمارنا الضائعة.

فمنذ أربعين عاما ونحن نتعايش مع فكرة وجوده كما تتعايش الشجرة مع ظلالها.

ومنذ أربعين عاما وهو يعمل على تكييف صورته مع صورة فلسطين نفسها.

ولم يكن اللباس العسكري الدائم سوى التعبير الأكثر سطوعا عن المماهاة بين الهدف وبين الطريق إليه. أما العينان النافذتان كعيني الصقر فقد كانتا كافيتين لإيصال الحلم الفلسطيني إلى منتهاه.

لمحات إنسانية

أبو عمار السياسي، الثائر، المناضل، الرمز، الرئيس، أبو عمار الأسطورة، كل ذلك معروف ومفهوم وخاضت فيه الأقلام.. وامتلأت به أنهار الصحف، وأمواج الأثير، وترددات الفضائيات. فحياة الرئيس مليئة بالشجن والدموع. وما أحوجنا إلى استراحة المحارب، لقد عاش مناضلا كأسطورة من خيال، وانفرد بثورية امتدت أربعة عقود طارده الموت خلالها أينما حل وفشلت جميع محاولات اغتياله.

ولكنه عندما رحل أخذ أسراره معه.

مات عرفات وكانت جنازته أطول جنازة لرئيس في التاريخ، جنازة استغرقت اثنين وأربعين ساعة، ومرت عبر أربع مدن وثلاث قارات وسبع رحلات طيران، ودفن في المقاطعة في رام الله قريبا من القدس التي أحبها وتمنى أن يدفن فيها.

والآن، وفي هذه الأيام الحزينة حيث يحتل أبو عمار كالعادة العناوين الأولى في الصحافة والإعلام ودنيا النشر مسموعة ومقروءة ومرئية، حيث جاوز عدد المراسلين والصحافيين المئات لمتابعة هذا الحدث الهام في رام الله وفي محاولة عالمية لمعرفة اللغز والسر وراء موته.

اليوم ونحن نجفف دموعنا ونكتم أشجاننا ونجلس على ضوء شمعة لنستروح نسمات ندية من حياته لعلها تشكل تلك الباقة التي نقدمها للملايين التي عشقته في حياته وبكته في رحيله وترحمت عليه عبر كل صلاة ومئذنة وكنيسة.

عبقرية البساطة

عندما عاد عرفات إلى غزة عام 1994، أعد له مرافقوه قصرا للإقامة فيه، وكان منزلا للحاكم العسكري المصري عندما كانت مصر تدير قطاع غزة خلال الفترة بين عامي 1948 حتى عام 1967، وقد أهدته مصر إلى السلطة الفلسطينية. لكن عرفات رفض الإقامة فيه، واختار منزلا بسيطا من طابق واحد يملكه أحد أصدقائه بجوار مقر الرئاسة في غزة.

وما أعرفه عن الرئيس عرفات أن ملابسه كانت دائما غاية في البساطة فلم يكن يغادر ثيابه العسكرية، وهو متواضع جدا لا يحب البذخ أو الترف، ويحب دائما أن يكون قريبا من الناس، بل إنه إذا اشتكى من أي وعكة صحية كان يستعين بطبيبة تعالج بالأعشاب الطبيعية، وكثيرا ما كان يستخدم الريحان فيشعر بالتحسن كثيرا على أثر تناوله له. كان بسيطا في طعامه إلى حد التقشف.. وكل من تناولوا معه الطعام كانوا يشهدون بكرمه ولطفه وهو يعزم على ضيوفه، ولكنه لا يتناول إلا أقل الطعام وأزهده.

وكانت "زهوة" لا تكاد ترى أباها أكثر من خمس دقائق في اليوم إن أتيح لها ذلك لكثرة مشاغله، وعندما كنا نسألها أين بابا؟ تنظر إلى الجدران كي ترى صورة أبيها، وربما نظرت إلى شاشة التلفزيون حيث تكون عليه صورته فتشير إليها.

ولكثرة أعماله كثيرا ما كان ينام أبو عمار في المكتب ولا يعود إلا قرابة الساعة الثانية ليلا.

دموع الرئيس

لم يكن أبو عمار يرى ابنته لأسابيع وقد سمع ذات يوم صوت طفلة تجري وتلعب أمام مكتبه في غزة فخرج متأثرا يبحث عمن أحضر طفلة لتلعب في مقر الرئاسة ولكن مرافقيه قالوا له:

- سيادة الرئيس، هذه ابنتكم زهوة جاءت لتراك.

ولم يتمالك عرفات نفسه وأجهش بالبكاء وهو يحتضنها ويأخذها معه ليلاعبها في مكتبه.

بكى عرفات أمام هذا المشهد الإنساني الفريد.. وهو الذي واجه الموت والطائرات والرصاص والنار والاغتيالات، وشهد مصرع أصدقائه ورفاق دربه وجنوده وقادته وهم يغيبون واحدا بعد الآخر. رحل رفاقه ومن تقاسم معهم شظف العيش وغدر الأيام، واجه كل ذلك دون أن تنزل له دمعه، فالرجال لا يبكون والقادة الأفذاذ لا يبكون أبدا.. ولكنها زهوة.

وقد عاش عرفات حياة خاصة بسيطة منذ عام 1967، كان يقضي ليلته في أي مكتب له، أو لدى أصدقائه أو في طائرته التي كانت منزلا له، وأمضى فيها أكثر مما كان يقيم على الأرض.

وأسرة الرئيس عرفات لا تراه كثيرا حتى وهو في داخل المنزل. فهو يجلس في مكتبه فترات طويلة وأراه مثل راهب يعيش في صومعته، ولكنه لا ينسى أبدا أن يجلس ولو قليلا إلى زهوة التي يفتخر بها ويحبها كثيرا وسماها على اسم والدته.

مواهبه المتعددة وقدراته

إن سر نجاح أبو عمار الحقيقي انه كان يمتلك موهبة القيادة، ويتميز بشخصية متعددة الوجوه والطاقات، أتاحت له أن يصبح عن جدارة رمز شعب ومقاومة.

فبعقله الثوري كان يشرف على الأعمال العسكرية، وبعقله المخابراتي كان يحلل المعلومات ويدير العمليات الأمنية والسرية، وبعقله الاقتصادي كان ينمي قدرات الفلسطينيين، ويحضر لمقومات الاقتصاد الفلسطيني في المستقبل، وبعقله الإعلامي كان يحرك الرأي العام الفلسطيني والعربي والعالمي، وبعقله السياسي كان يعمل من أجل إقامة الدولة الفلسطينية على أرض فلسطين ليكون هو رئيسها، وتكون القدس عاصمتها.

ويروي الكاتب والسياسي الوزير اللبناني "كريم بقرادوني" أنه كان يتناول معه في بيروت الطعام الذي كان الجيران يعدونه، وكان يفخر بأنه طعام الشعب، وكان يقول له إن جماعته كثيرا ما حذرته من مغبة تناوله لأسباب أمنية وكان جوابه:

- هؤلاء الفقراء الطيبون لن يغدروا بي أبدا.

لقد كان أبو عمار يؤمن إيمانا عميقا بأن لديه رسالة عادلة وتاريخية إلا وهي الهوية الفلسطينية، والإبقاء عليها حية في الضمير الفلسطيني والعربي والدولي.

وكذلك في الوعي والواقع على حد سواء، والحيلولة دون أن تلفها سحابات النسيان، أو أن يدفع بها خصومها- وهم كثر- إلى هامش ثانوي بعيدا عن المركز والبؤرة وقلب الأحداث والتطورات.

أبو عمار الرمز

لقد حرص على أن يبدأ بنفسه، وعلى أن يجعل من شخصه رمزا يجسد معالم هذه الهوية وتجلياتها المادية الملموسة، كما حرص على أن يكون حضوره في المحافل والهيئات الدولية والعربية معادلا ومرادفا لحضور الهوية الفلسطينية، وتذكيرا دائما ومستمرا بوجودها في ظروف معقدة ومتغيرة.

هكذا عرف العالم أبو عمار في رمزيته وبساطته الظاهرية المتمثلة في ملبسه المتميز والكوفية الفلسطينية وبزته الزيتية، وسلاحه الذي لم يفارقه في جميع الظروف.

لقد حرص الرئيس الرمز على أن يعيش ويحيا بلا مأوى خاص ومحدد، برغم أنه لم يعوزه المال، لقد كان حريصا دائما على دواعي الأمن.. لأنه كان هدفا يتم رصده وملاحقته على مدار الساعة.. ورغم كل شيء فقد حرص الرئيس على تدعيم هذه الرمزية الفلسطينية بافتقاده مأوى خاصا كان يريد أن يكون قريبا من وضعية اللاجئ الفلسطيني في المنافي والمهاجر.

وهكذا عاش بسيطا وتميز بأريحية معروفة وتواضع وبساطة دون تكلف.. تنقل من الأردن إلى بيروت ومنها إلى تونس ومن ثم إلى غزة وأريحا ورام الله، حيث وطنه الذي جاهد وناضل من أجل العودة إليه، وليضم جثمانه الطاهر.

وفي عام 1988 أعلن قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف، وأصبحت هناك 114 دولة تعترف بالدولة الفلسطينية الجديدة، واعترفت بها كذلك الجمعية العامة للأمم المتحدة في القرار 177/43

الصادر في 1988/12/15، ومنحت الدولة الوحيدة وضعية مراقب بأغلبية 104 ضد دولتين هما الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وامتناع 40 دولة عن التصويت.

لقد فرض عرفات حضور فلسطين في المشهد العالمي طيلة هذه العقود الأربعة بحيث لم يعد من الممكن تجاوزها رغم غيابه. وها هو أبو مازن يناضل باستماتة ووعي لتكون فلسطين "دولة" مراقب غير عضو لتفرض على العالم كله أن يحترم حق الشعب الفلسطيني، وليحاكم أمام الهيئات الدولية كل من انتهك الدم الفلسطيني، واغتال ونكل بأحرار فلسطين وأطفالها وشيوخها ونسائها.

ويقول أحد المقربين من الرئيس عرفات:

كان أبو عمار شخصية فريدة من نوعها.. يلعب بالبيضة والحجر. كان يمتلك قدرات هائلة على تجميع الشتات والمتناقضات.. يرفض مناقشته والخروج عن طاعته، يتدخل في كل كبيرة وصغيرة.

ولم يكن أبو عمار شرها للثروة.. ولكنه.. كان يركز السلطة في يده.. لم يكن يملك بيتا، ولم يكن طعامه يزيد كثيرا عما يأكله أفقر الناس في شعبه.

ويضيف صاحب هذه الشهادة التاريخية قائلا: "لم يكن في أموال السلطة أو المنظمة ما يغري ياسر عرفات، فالرجل الذي وضع كل ما جناه من عمله في الكويت قبل إعلان منظمة فتح لا يمكن أن تغريه كنوز الدنيا. لكنه في الوقت نفسه، كان يرفض التفريط في شيء.

والحديث عن الرئيس القائد.. يطول ويطول.. ولكن، في هذه الظروف التي يعاود فيها التحقيق في وفاته.. أستعيد ما قاله خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية "حماس":

إني أتهم إسرائيل صراحة بأنها سممت عرفات، لأن الأطباء الفرنسيين في المستشفى العسكري لم يتمكنوا من كشف هذا السم، كما حصل معه قبل سبع سنوات، لم يجدوا وقتها دليلا على ذلك في دمي لكن إسرائيل أُجبرت على أن تأتي بالدواء المعالج لان عميلين من عملاء الموساد كانا في قبضتنا.

ويقول محمد صبيح:

لقد تورط الموساد الإسرائيلي في موت عرفات ذلك أمر وارد خاصة وأن مستشفى كبيرا كمستشفى "بيرسي" العسكري الفرنسي الشهير لم يعرف حتى الآن على وجه الدقة السبب الحقيقي وراء تدهور وموت الزعيم القائد.

وبعد..

فعلى قادة الشعب الفلسطيني وكوادره، أبناء ياسر عرفات وجنده وقواده وأبطاله أن يعملوا بكل إخلاص على معرفة اليد الآثمة التي اغتالت الرئيس الرمز. وذلك أقل ما نقوم به لإهدائه إلى روح البطل الشهيد، وإلى كل من خفق قلبه يوما بحب الرئيس، لوطنيته وشجاعته وبطولته، كأحد أساطير التاريخ المعاصر، مستذكرة مجهود الرئيس أبو مازن وجهود العقيد توفيق الطيراوي واللجنة بقيادة وزير الصحة الدكتور البشير وقناة "الجزيرة" التي كشفت هذه الحقائق الهامة بعد بحث ودراسة استغرقت أكثر من عام بالتعاون مع المعهد السويسري الذي اكتشف مادة البلونيوم، كما أُثمن باحترام القضاة والمحامين الفرنسيين الذين حضروا إلى رام الله لمباشرة الإجراءات المتعلقة بهذه القضية التي رفعتها السيدة سهى عرفات في المحكمة الفرنسية ضد مجهول بقصد معرفة هذا اللغز الذي يشكل أكبر وأهم لغز في وفاة الرئيس الراحل.

وليس لي إلا أن اختم هذه الباقة، بهذه الزمرات الناضرة من بستان الرئيس محمود عباس "أبو مازن" فقد كتب يقول: كان أبو عمار رفيق درب طوى فيه الزمن من سنين العمر ما يزيد الأربعين، كان الحلم على امتدادها يسكنه ويتحول إلى جرعة أمل مع كل عثرة تقف في درب نضالنا وكفاحنا الطويل.

كان الوطن عنده برعم طفولة وتصميم شباب، وحكمة شيخوخة، وشعورا ساميا بالثبات والانتماء والتصميم.

كان الوطن في وجدانه أنشودة يحلم بها، يعيش معها، وتعيش معه، وفي مساماته ينام بها وعليها يصحو.

كان سعيه لتحقيق الحلم همه وانشغاله في الليل والنهار، لا مكان معه للصحة وللراحة، ولا وقت للتسلية والترويح، فهو الأولوية، وليس هناك ما يتقدم عليه أو ينازعه المكانة .

بحنكته تخطينا الكثير، الكثير من الصعاب، وبشجاعته كان يقدم حيث يرى الإقدام عزما ويحجم حيث يرى الإحجام حزما، ففي المخاطر العظيمة تظهر الشجاعة العظيمة.

ويضيف أبو مازن: كان المعتدل المناور، الشديد، المتفائل، لقناعته أن التشاؤم لم يربح معه معركة أبدا.

إنه رفيق الدرب الرئيس الرمز القائد الشهيد ياسر عرفات.

(2012/11/30)

محمود عباس (أبو مازن)

"إن الشجاعة في القلوبِ كثيرة ... ورأيت شجعان العقول قليلا"

بحكمة المؤرخ وثقافة المناضل وإصرار صاحب الحق خاض معركة الدولة وانتصر.

القائد المحارب، أستاذ التاريخ، القانوني، الرائد الأديب، المؤلف، المفاوض العنيد،

يأسرك بمنطقه وترفعه وخلقه ورؤياه وبصيرته.

"هل هناك شعب فائض عن الحاجة في منطقتنا أم أن هناك دولة ناقصة ينبغي تجسيدها فوق أرض فلسطين؟"

سؤال طرحه الرئيس وأجابت عليه مائة وثمانين دولة

هذه باقة ورد أقدمها للرئيس القائد أبو مازن.. أقدمها بحب واعتزاز وتقدير على هذا النصر التاريخي العظيم الذي حققه عندما وضع فلسطين على جغرافية الدول المستقلة، التي لها حدود وكيان، ولغة، وعلم، وشعب ورئيس.

دولة حقيقية في عُرف القانون والتاريخ والمنطق والواقع السياسي والثوري.. دولة على قدم المساواة مع الدول الأخرى.

دولة غير عضو، ولكنها ذات كيان وحقوق وكلمة، وهي قادرة على أن تأخذ مكانتها وحقوقها عندما تذهب إلى المحافل الدولية والمنابر الإنسانية والمنظمات الحقوقية.

دولة ولها حدود وشعب، فلا يجوز لأي دولة أخرى أن تغتصب أرضها وحقها وماءها وهواءها، ولا يجوز لأي قوة أن تحاصرها وتمنع عنها الماء والهواء والحياة.

القيادات التاريخية أقوى من المتغيرات

يا سيادة الرئيس..

أنا أعرفك حق المعرفة.. منذ سنين قائدا ورفيق درب لأبو عمار وأُكبر فيك هدوءك وعلمك وتاريخك وحكمتك وتجربتك وخبرتك وإيمانك بحق وطنك وقضية بلادك.

لقد حملت مأساة شعبك ومعاناته وحملت كل هموم المشردين من أطفال وشيوخ ونساء وحملت تاريخا طويلا من الهموم والمآسي والنكبات على امتداد خمسة عقود أو أكثر وقد شهدت منذ كنت في

العاشرة من عمرك في مدينة صفد ألوانا من المحن والهزائم والانكسارات، حملت كل ذلك وذهبت لتضعه أمام العالم ولتضع العالم كله بما فيه من قيم ومبادئ ومفاهيم أمام هذه النكبات والكوارث التي تشكل ملفا داميا للشعب الفلسطيني. إنك في كلمتك أمام هيئة الأمم المتحدة وضعت العالم كله أمام من استباح دماء هؤلاء الشهداء الفلسطينيين على امتداد التاريخ.

الموت الحقيقي هو أن تسلم بالهزيمة

وعندما شاهدت العالم كله يصفق لك ويتعاطف معك ويعبر عن إعجابه وتقديره لكلماتك التي تفيض بالحكمة والصدق استعدت في ذاكرتي ما قاله ياسر عرفات على منبر هيئة الأمم في العام 1974 عندما قال جملته الشهيرة: "لقد جئتكم حاملا غصن الزيتون في يد وبندقية الثائر في يد، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي"، رغم أن إسرائيل والعالم أسقطت غصن الزيتون إلا أن أبو مازن اليوم يقتحم الأمم المتحدة بغصن الزيتون من اجل عدالة قضيتنا وهو يمثل شعب مناضل حمل البندقية لأن العالم لم يستجب لغصن الزيتون كل هذه السنين. أبو مازن حمل أمانة المناضلين والمساجين وحرب غزة ولبنان وصبرا وشاتيلا والمخيمات ولم يأتِ من ضعف ولكن من عزيمة شعب مناضل ومكافح، وأتى حاملا انتصار إرادة الشعب الفلسطيني على الظلم وآخرها انتصار إرادة الشعب المقاتل في غزة. وقد حققت لبلدك ولتاريخك مجدا حقيقيا عندما سلم العالم كله بحق فلسطين وأدان المعتدين الذين تسببوا في سلب أوطاننا وطردنا من أراضينا في شتى بقاع العالم.

الإرادة الصلبة لأبو مازن

إن الحروب ليست هي الوسيلة الأولى للانتصارات، بل إن الحكمة والمنطق والاحتكام إلى العقل والقيم تجرد عدوك من أي منطق وتظهره عاريا ضعيفا عاجزا حتى لو امتلك كل ألوان ومفردات القوة.

وفي عالم السياسة ودنيا الثورات والمتغيرات لا شيء ثابت، ولا شيء دائم، ولا شيء فوق منطق التاريخ، يمضي زعماء وتتغير المنابر وتختلف الأهواء والمعطيات وتهب رياح الثورة لتعصف بكل شيء، ولكن القيادات التاريخية لا تفقد وضوح الرؤية تظهر كالطود الشامخ لا تهزها الأحداث ولا تعصف بها المتغيرات ولا تنال منها المؤامرات والمحن.

إنك دائما كنت تحسن قراءة الواقع وقراءة المستقبل وتوازن بين جميع الاحتمالات لتحاول أن تتخذ القرار الصائب ولم تكن معنيا بالتصفيق أو التهليل أو الأضواء، ما يهمك حقا كان ولا يزل أن تقترب خطوة من القدس ومن صفد ومن فلسطين. وللحقيقة أقول إن انتصارك الأخير وضعنا على الطريق الصحيح لنواصل المشوار الذي كان يحلم به الرئيس عرفات وكنت تشاركه هذا الحلم بل كنت تستوحي روحه التي كانت ترفرف حولك وأنت تخاطب العالم مستذكرا مقولة الرئيس المشهورة: "لا تسقطوا غصن الزيتون من يدي".

وحاربت معركة دولة فلسطين

اخترناك زعيما بعد الرئيس عرفات وكانت نتائج الانتخابات أكثر من 63 في المائة من الأصوات، وهذا إجماع لك أن تفخر به ولنا أن نلتزم به، وأذكر هنا أننا في أول انتخابات للرئيس عرفات قال الزعيم الراحل:

"لو فزت بواحد وخمسين في المائة من الأصوات لكنت راضيا ولكن نتائج الانتخابات قاربت السابعة والستين في المائة من أصوات الناخبين.

إن القيادة التاريخية التي يمثلها الرئيس محمود عباس (أبو مازن) مدرسة عقلانية حكيمة تستمد جذورها من معين التجربة الإنسانية، ومن جذور التاريخ وأعماقه، فالرئيس أبو مازن أستاذ في التاريخ حصل على درجة الدكتوراه من جامعة موسكو وكانت رسالته في الصهيونية والمحرقة التي تعرض لها اليهود في الحرب العالمية على يد هتلر، وفي جميع مواقفه السياسية يوازن الرئيس أبو مازن بين المعطيات المختلفة ويختار دائما الأفضل بعقلانية وحكمة، إذا كان الرئيس عرفات وضع حجر الأساس لقيام دولة فلسطينية وإعلان الاستقلال في الجزائر على أساس قرار 181 فإن الرئيس أبو مازن قد أكمل المسيرة وعاهد شعبه من على منبر هيئة الأمم المتحدة بان يسجل اسم فلسطين على خريطة العالم الجغرافية والسياسية والتاريخية واعتراف العالم بها. وتحقق اعتراف العالم بإعلان دولة فلسطينية في التاريخ المعاصر.

كلاهما امتاز بالصبر والعناد والمثابرة والمرونة والحكمة، وكلاهما أثنى معظم سنوات عمره وزهرة شبابه ثائرا يقاتل في الخط الأمامي.

واحد من سبعة

الرئيس أبو مازن أحد سبعة مناضلين التقوا في بيت أبو جهاد في الكويت وهو لا يزال في شهر العسل.. وهناك وضع هؤلاء السبعة القواعد الأساسية لحركة فتح بل إن اسم فتح ولد في تلك الجلسة وهي الحروف الأولى من حركة تحرير فلسطين.

وكان أبو مازن واحد منهم.

ولعله هو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من هؤلاء السبعة. فقد لحق معظمهم بالرفيق الأعلى ومنهم صلاح خلف، وخليل الوزير، ويوسف النجار وياسر عرفات.

وتقول حقائق التاريخ المعاصر أن "أبو مازن" هو مهندس أوسلو ولكنه ليس المسؤول عن عدم تنفيذ ما فيها من جوانب ايجابية.

وعندما كان أبو مازن يفاوض سرا كان على وعي تام بإخطار هذه الاتفاقية، وقد أوضح في معرض عرضه للأسباب التي دعت إلى الدخول في مفاوضات أوسلو بهذا المثل الرمزي.

قال: إننا بعد هزيمة العراق في حرب الخليج الأولى، وتوقيع السادات لاتفاقيات كامب ديفيد، وتفكيك الاتحاد السوفييتي وخروج منظمة التحرير من عمان وبيروت كنا أمام لجة عميقة من الماء ولم يكن أمامنا إلا أن نلقي بأنفسنا بها، فإما أن نغرق ونواجه الموت وإما أن نعبر هذه اللجة إلى الضفة الأخرى.

وفي حديث صحافي آخر قال أبو مازن: في الأوقات الصعبة من تاريخ الأمم يجب عليك أن توازن بين ما هو سيء وما هو أكثر سوءاً.

وقد وافق الرئيس عرفات على اتفاقية أوسلو لان العرب جميعهم لم يتركوا له أي خيار، وكان أبو عمار يرى أنه بدلا من أن نحارب من خارج الوطن علينا أن نحارب ونحن على أرض الوطن. وهذا المنطق قبله معظم زعماء المنظمات وفي طليعتهم أبو علي مصطفى، وكل زعماء الفصائل .

وفيما يرويه نبيل شعث أن أبو عمار عندما عاد إلى غزة وقف أمام البحر وهو يتساءل: هل هذا هو بحرنا؟ هل هؤلاء هم شعبنا يا نبيل؟ ويعلق نبيل شعث على قبول المنظمة لأوسلو بأن أبو عمار عندما قرأ

المواد التي تسمح له بالعودة إلى وطنه بعد سبعة وعشرين عاما أخذته الفرحة والدهشة وتصور حجم الانتصار الذي سيعم فلسطين وهو يقابل أبنائها بعد سبعة وعشرين عاما.

ليس دفاعاً عن أوسلو

وإني استذكر هنا أنه عقب اغتيال أبو جهاد تصاعدت في تونس أصوات عديدة تشعر الفلسطينيين بأنه لم يعد مرغوبا في وجودهم، ونتيجة لهذه الضغوطات أحس الفلسطينيون في تونس بأنهم على درب الضياع، وقد عاصرت هذه الفترة واكتويت بنيرانها وشاهدت بنفسي حيرة أبناء فلسطين ومناضليها وهم يبكون ويتساءلون إلى أين يذهبون، فمعظمهم كان دخولهم محرما عليهم في سوريا ولبنان والأردن ومصر، هذه الحقائق نهديها لمن يريدون أن يعرفوا الخلفية التاريخية لتوقيع اتفاقيات أوسلو.

وللحقيقة أنني كنت أرى في أبو مازن قائدا حازما لا يتردد ولا يهادن ويصر على ما يراه حقا كقائد تاريخي مسؤول.

ونستذكر هنا مقولة أبو مازن إن السياسة هي فن الممكن، وإننا في حاجة إلى موطئ قدم لندفن فيه شهداءنا، وكان أبو مازن غاضب جدا بعد استشهاد أبو جهاد لأنه كان من المفروض أن يدفن أبو جهاد في سوريا بسبب وجود والدته ووالده في دمشق، ولكن بسبب خلاف مع أغلب الدول العربية فكان محظور على أغلب القيادة الفلسطينية دخول سوريا منهم أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو مازن لموقفهم السياسي والحفاظ على القرار الفلسطيني المستقل. وكنا في تونس ننتظر الموافقة على الدخول إلى سوريا وتم نقل الجثمان بطائرة خاصة ولم يستطع أبو مازن والقيادة الفلسطينية مرافقة الجثمان إلى سوريا. وكانت الدموع بعين الرئيس عرفات وأبو مازن ومعظم القيادة الفلسطينية وهم يودعون جثمان أبو جهاد إلى وطن حيث لا وطن له.

ليست أوسلو قيداً مقدساً

وها هو أبو مازن يثبت للجميع بان أوسلو لن تكون قيدا وأن علينا جميعا أن نكون جنودا تحت رايته وهو يحارب لاستعادة حقوقنا معلنا في كل مناسبة وعبر كل منبر أن لا تنازل عن الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني، وأن لا تفريط في حق العودة، ولا تنازل عن شبر واحد من الأرض الفلسطينية في حدود عام 1967.

ملامح من حياة مناضل حقيقي

وُلد محمود رضا عباس "أبو مازن" في صَفَد عام 1935. وقد اضطر للّجوء مع عائلته إلى سوريا بعد الهجوم على مدينة صفد واحتلالها من قِبَل المنظمات اليهودية في نيسان 1948. فدرس الابتدائية والثانوية في دمشق والتحق بجامعة دمشق وحصل على إجازة في القانون عام 1958.

وفي عام 1957 عمل في وزارة التربية والتعليم القَطَرِية مديراً لشؤون الموظفين، زار خلالها الضفة الغربية وقطاع غزة عدة مرات لاختيار معلمين وموظفين للعمل في قطر. واستمر في عمله حتى عام 1970 حيث تفرغ كلياً للعمل الوطني.

وقد ساهم في تأسيس حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وكانت الانطلاقة في العام 1965.

وقد حصل على شهادة الدكتوراه من معهد الاستراق في موسكو عام 1982، وكان موضوع الرسالة "العلاقات السرية بين ألمانيا النازية والحركة الصهيونية."

وقد انتخب رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية في العام 2004.

كما أصبح رئيسا للسلطة الوطنية الفلسطينية نتيجة الانتخابات أعقبت رحيل الرئيس عرفات. وقد ألّف العديد من الكتب أهمها: "الصهيونية بداية ونهاية" ، "قنطرة الشر"، "الوجه الآخر"، "سقوط حكومة نتنياهو"، "الاستقطاب العرقي والديني في إسرائيل"، "طريق أوسلو"، إضافة إلى العديد من الدراسات الهامة.

حياته السياسية

بدأ الرئيس محمود عباس نشاطه السياسي من سوريا، ثم انتقل إلى العمل مديرا لشؤون الأفراد في إدارة الخدمة المدنية في قطر. ومن هناك قام بتنظيم مجموعات فلسطينية، واتصل بحركة التحرير الوطني الفلسطيني- فتح التي كانت وليدة آنذاك.

وشارك في اللجنة المركزية الأولى، ولكنه ظل بعيدا عن مركز الإحداث نظرا لوجوده في دمشق، في حين كانت قاعدة منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وظل عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام 1968.

وقد حصل خلال عمله السياسي على الدكتوراه في تاريخ الصهيونية من كلية الدراسات الشرقية في موسكو.

قاد المفاوضات مع الجنرال "ماتيتياهو بيليد" والتي أدت إلى إعلان مبادئ السلام على أساس الحل بإقامة دولتين والمعلنة في 1 كانون الثاني (يناير) 1977.

كما أنه عضو في اللجنة الاقتصادية لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ نيسان (ابريل) 1981، كما تولى حقيبة الأراضي المحتلة بعد اغتيال خليل الوزير (أبو جهاد).

وفي عام 1996 تم اختياره أمينا لسر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وبذلك أصبح الرجل الثاني عمليا في ترتيب القيادة الفلسطينية، وقد عاد أبو مازن إلى فلسطين في تموز (يوليو) في عام 1995.

وما أعرفه عن الرئيس محمود عباس أنه كان يحاور اليسار الإسرائيلي ورموز السياسة الإسرائيلية المعتدلة ويدخل معهم في نقاشات ومنهم ماتيتياهو بيليد واوري افنيري وغيرهما وكان منهجه العملي أنه يريد أن يصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية مع الحكومة الإسرائيلية بوساطة اليسار الإسرائيلي، كما أنه في المرحلة الأخيرة من حكم ايهود اولمرت خاض محادثات مطولة سرية مع وجود وسطاء، ويعترف اولمرت وغيره من المراقبين بأنه لو تم تمديد ولاية ايهود اولمرت لمدة ستة شهور أخرى لكانت المشكلة الفلسطينية قد تم حلها بشروط تقبلها منظمة التحرير وتنسحب على القدس والمستوطنات وحق العودة.

كما أشرف على المفاوضات التي أدت إلى اتفاق أوسلو، كما قاد المفاوضات التي جرت في القاهرة وأفضت إلى اتفاق غزة- أريحا.

وقد ترأس إدارة شؤون التفاوض التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ نشأتها عام 1994 وعمل رئيسا للعلاقات الدولية في المنظمة.

وفي 19 آذار (مارس) 2003 تم تعيينه رئيسا للوزراء ولكنه واجه صعوبات أدت إلى استقالته.

وفي 25 تشرين ثاني (نوفمبر) 2004 تم ترشيحه رئيسا للسلطة الفلسطينية من قبل حركة فتح وقد جرت الانتخابات في 9 كانون الثاني (يناير) 2005. وكانت النتيجة نجاحه وحصوله على ما نسبته 65.52 ومنذ ذلك الوقت ما زال يتولى رئاسة السلطة الفلسطينية.

أبو مازن المفاوض الصعب

عندما تقرأ أي مقالة أو تصريح للرئيس أبو مازن تدرك أنه هو نفسه كاتب هذا المقال. فأسلوبه مميز وطريقته في التفكير واضحة ومفرداته وصياغته تدل على أنه مفكر وكاتب مجيد، كما أنه محاور مثقف بعيد النظر، ولعله كان دائما في الصفوف الأولى عندما تكون هناك مفاوضات مع الطرف الآخر لأنه كان دائما قادرا على التعبير عن حقائق التاريخ وعن حقوق الشعب الفلسطيني، ويشهد بذلك هذه الخطبة التاريخية الرائعة التي تعد وثيقة سياسية وفكرية وأدبية ومرافعة صادقة بليغة عن حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته.

ومما يعزز ثقة محمود عباس بنفسه وقدرته على الإقناع أنه اختار لرسالة الدكتوراه موضوعا بالغ الحساسية، وكان ذلك في منتصف السبعينيات وهو يتعلق بالصهيونية من جهة والمذبحة التي تعرض لها اليهود على يد النازيين من جهة أخرى.

إن الاقتراب من هذا الملف محفوف بالخطر ويتهدد الموت كل من يحاول أن يقترب منه، ولكن ذلك لم يثنِ طالب الدراسة محمود عباس عن التصدي لحقائق التاريخ ومحاولة إذاعة الصفحات الخفية من هذه الحقائق التي تمس بسياسة الوكالة اليهودية وكيف تعامل بن غوريون مع هذه القضية.

وللحقيقة أقول إن طالب الدكتوراه الأستاذ محمود عباس طلب مني في العام 1976 أمده بمعلومات عن هذه الحقبة التاريخية التي لا يوجد لها مراجع، أو مصادر، وذلك من خلال أصدقائنا من مفكري اليسار الإسرائيلي ومن النواب والسياسيين الذين لهم بالضرورة خبرة وثقافة، واطلاع على هذا الموضوع الذي كانت إثارته تبعث على الخوف والتردد، بل إن كثيرا من أصدقائي تساءلوا في استغراب كيف أجرؤ على أن أطرح مثل هذه الأسئلة وحول هذا الموضوع.

ونصحني الأصدقاء وخاصة الكاتب المعروف اوري أفنيري الذي زودني بالمعلومات عن هذه القضية الحساسة جدا وكانت هذه المعلومات سرية للغاية حيث الذي كتب الكتاب عن هذا الموضوع حول علاقة الوكالة اليهودية بألمانيا النازية الدكتور كاستنر قد قُتل في تل أبيب لأنه كان محظورا هذا الموضوع أن يناقش. وطلب مني افنيري أن أجذف بعيدا عن شاطئ هذه الحقبة التاريخية. ولكنه زودني باسم مكسيم غيلان الموجود في باريس والذي يحرر مجلة "إسرائيل/ فلسطين" كان قد سجن في إسرائيل بسبب تعاونه مع منظمة التحرير وكان يعرف كل الحقائق، وقد قمت بواجب التعريف بين أبو مازن ومكسيم غيلان الذي أصبح فيما بعد من أصدقاء أبو مازن وعصام سرطاوي.

ولا شك أن أبو مازن وجد الإجابات التي يريدها عند هذا الكاتب، وخاصة علاقة الوكالة اليهودية بالنازية والدور الذي قام به بن غوريون في تلك الفترة. كانت جرأة غير عادية عند أبو مازن لطرح هذا الموضوع في رسالة الدكتوراه.

لمحات من عبقرية القائد: ما أشبه اليوم بالبارحة

كانت الرحلة الأخيرة التي عاشها الرئيس رحلة شاقة بين ترانيم الماضي المعبق برائحة النضال والثورة التي كللها الشهيد الراحل ياسر عرفات، وبين خضم الحاضر المليء بالتناقضات السياسية الداخلية والخارجية. لقد كان أبو مازن صوت الحرية، صوت وطنه الحبيب، صوت الديمقراطية، صوت الشهداء والمحرومين، صوت المخيمات وعذابات المشردين. لقد عبر عنا جميعا. وكان صوتا واضحا نقيا لكل فلسطيني في شتى أنحاء المعمورة. وبذلك يكون قد تسلم الراية من الرئيس الراحل ومضى على درب القيادات التاريخية العظيمة. كما أنه عبر عن القدس وكان صاحب فكر خلاق ورأي مستمد من حقائق التاريخ ومن تجارب النضال، فتقدم ثابت الخطوة نحو تحقيق حلم الدولة الفلسطينية متجاوزا كل العقبات والصعوبات التي اعترضت طريقه.

قبل التوجه إلى الأمم المتحدة طاف الرئيس عباس أرجاء العالم وأرسل موفدين من القيادة الفلسطينية إلى دول عدة حتى استطاع أن يرفع عدد الدول المعترفة بدولة فلسطين إلى مائة وثماني وثلاثين دولة.

وإن كان الثمن هو الشهادة

وبين الترهيب والترغيب كان الرئيس أبو مازن يضع نصب عينيه المصلحة الفلسطينية أولا، ومع كل استحقاق كان يرى فيه أن المصلحة الفلسطينية هي الأولى ولهذا استوجب الواقع معالجة كل القضايا بحكمة وعقلانية، لا نقول بصورة ميكافيلية وإنما نقول بصورة تنحاز إلى الوطن والشعب الفلسطيني.

لقد تحمل الرئيس أبو مازن الكثير الكثير من أجل تحقيق هذا الانتصار الدبلوماسي، تحمله جسديا وعناءً وتهجما وتضييقا كما تعرض لشتى أنواع المضايقات التي قد تدفع أي إنسان إلى اليأس والتخلي عن متابعة المسيرة.

ولكن من كان شريكا في الطلقة الأولى بل كان صوته مرجحا في مثل هذه الأيام قبل ثمانية وأربعين عاما إلى جانب الرئيس الشهيد ياسر عرفات، بإعلان الكفاح المسلح طريقا لتحرير فلسطين، كان واثقا أن مشروع الشهادة الذي رضيه ورفاقه كان دائما نصب عينيه. كما حدث مع رفاقه في درب النضال الطويل، فاستمر بمتابعة المسيرة غير مهتم بعواقب الأمور وان كان الثمن الشهادة.

ومن أروع ما يروى عن الرئيس أبو مازن أنه عندما سُئل عن سبب إصراره وتمسكه أجاب إنهم أبناء شعبي. فلو وجدت أن هناك شخصين اثنين يتظاهران داعين إلى رحيلي لكنت الثالث معهما.

وعندما اعتلى أبو مازن منبر الأمم المتحدة ثلاث مرات خلال عام واحد وشهرين كان واثقا أنه يدافع عن قضية شعبه وأنه ينطق بصوت اللاجئين المشتتين في أصقاع المعمورة ومن هنا فإن لهم الحق في الدولة رغم كل ما يدعيه الطرف الآخر.

لا تراجع مهما كان الثمن

ووفقا لقيادات فلسطينية كانت على مقربة من الرئيس أبو مازن في الساعات الحرجة التي سبقت التصويت، فقد جاء من يطلب منه التعهد بعدم اللجوء إلى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي وأن يؤكد أنه لن يلاحق جنرالات الاحتلال عن جرائم الحرب التي ارتكبوها في حق الشعب الفلسطيني وأنه لن يدين بناء المستوطنات استنادا إلى مواثيق جنيف.

ولكن الرئيس رفض ذلك رفضا قاطعا بل إن رئيس وزراء دولة أوروبية هامة طلب منه إرسال نسخة من نص خطابه لقراءته وبعدها تتخذ دولته قرارا بالتصويت أو عدمه لأن الوقت قصير بين إلقاء الكلمة والتصويت. فكان جواب الرئيس عباس: بعد سماعك الخطاب أمامك فرصة للتصويت أو عدمه. فكان أن صوتت هذه الدولة الأوروبية بنعم للدولة الفلسطينية.

شخصية الزعيم من خلال قراءة خطابه الأخير

والحقيقة أني قرأت بإمعان شديد خطاب الرئيس وتأملت فيه ووجدت أنه صورة حقيقية لطريقة تفكير الزعيم ووجدت أنه يعبر تعبيرا صادقا عن جميع أبناء فلسطين. وسأتوقف هنا عند بعض الفقرات لنعرف أبعاد وحقائق شخصية القائد.

* يقول أبو مازن: وتجيء فلسطين إليكم اليوم في لحظة فارق إقليميا ودوليا كي تكرس حضورها وتحمي إمكانات وأسس السلام العادل المأمول في منطقتنا.

إنه ينشد السلام العادل وهذا المنطق هو الذي يكسب القضية الفلسطينية المصداقية ويكسب القائد الشفافية وبعد النظر، انه يطالب بسلام عادل مأمولٍ في المنطقة، يقول ذلك وأصوات الصواريخ والدمار والقتل ودوي الطائرات لم يزل يتردد صداه في غزة وجنوب فلسطين.

* ويقول أبو مازن: أؤكد أن شعبنا لن يتنازل عن حقوقه الوطنية الثابتة وسيواصل المقاومة الشعبية السلمية.

وهذا التوجه القائم على عنصري المقاومة والناحية السلمية مما يميز فكر الزعيم وتوجهاته فهو لا يغفل مبدأ المقاومة ولكنها المقاومة التي تقوم على معطيات يمكن أن تستمر ويمكن أن تحقق النصر وتحرج العدو وترغمه على أن لا يغامر باستخدام قوة نيرانه العسكرية وهكذا يكون نهجه استمرارا لما أعلنه الرئيس الراحل عندما قال من فوق منبر الأمم المتحدة: جئتكم حاملا غصن الزيتون بيد والبندقية باليد الأخرى فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي.

ولا شك أن المقاومة السلمية التي يدعو إليها الرئيس تجسد هذا المعنى وتعزز من توجه الجماهير الفلسطينية التي ترفض الهزيمة أو إملاءات الأمر الواقع.

* ويقول أبو مازن: في مسيرة نضاله الوطني الطويلة حرص شعبنا على تحقيق التوافق والتماثل بين أهداف وطرائق نضاله وبين القانون الدولي وروح العصر بمتغيراته ووقائعه، وحرص على ألا يفقد إنسانيته وسمو أخلاقياته وقيمه الراسخة وقدراته الخلاقة على البقاء.

فالرئيس إذن حريص على روح العصر من جهة وعلى الانسجام مع المبادئ والأخلاق عندما نسعى إلى تحقيق الحلم الفلسطيني بإقامة الدولة الفلسطينية.

جلالة الملك عبد الله في ضيافة القائد

ولعل زيارة جلالة الملك عبد الله الثاني إلى دولة فلسطين تحمل كثيرا من المعاني. فجلالة الملك رجل دولة ومواقف وهو كأول زعيم يزور الأراضي الفلسطينية بعد إعلان الدولة يعلن كعادته عن دعمه للشعب الفلسطيني وللقيادة الفلسطينية، ليس من خلال الوفود ولا الرسائل ولا الأساليب الدبلوماسية التقليدية

وإنما يحضر بنفسه على رأس وفد كبير للتهنئة والتنسيق والمساعدة، لتكون فلسطين دولة على خريطة الشرق الأوسط لها حضورها وشعبها وقيادتها وفي ذلك رد بليغ على أولئك المتقولين بأفكار سياسية وتوجهات مريضة مشبوهة تحمل عنوان "الوطن البديل".

إن وجود جلالة الملك في رحاب دولة فلسطين إلى جانب أبو مازن يؤكد أبعاد هذه المدرسة العقلانية في السياسة التي كان يبشر بها دائما الرئيس الفلسطيني فقد كان دائما على قناعة تامة ومنذ أن كان رئيسا للجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة، إذ كان يعلن دائما عن استقلالية كل من الأردن وفلسطين وقد تعرض بسبب هذه السياسة إلى هجوم ضار حيث صدر ضده بيان يتهمه بإقامة علاقات قوية مع الأردن ومحاولة إعادته إلى الصورة فكأنه يدعم النظام الأردني؟!

وأذكر أني قابلته في العام 1978 في أعقاب طرح أجندة فلسطينية تهاجمه فقال لي يومها: إن العلاقات الأردنية- الفلسطينية هي علاقات تاريخية، وهي علاقات جوار ونسب وجغرافيا ومصير واحد ورؤية واحدة.. وأضاف أبو مازن: إني أُحملكِ رسالة إلى رؤساء البلديات في الضفة الغربية مؤداها أني لا أستجدي صك الوطنية من أحد فهؤلاء إخواني في الأردن.. وأنا أدرك حقائق التاريخ ومقتضيات السياسة والوطنية. وكان ذلك الحديث في حضور رئيس الديوان الملكي عدنان أبو عودة وشوكت محمود رئيس اللجنة الأردنية المشتركة من الطرف الأردني. وكان أبو مازن في حالة ثورة وغضب شديدين ونعت كل من كان له يد في البيان والهجوم عليه وتخوينه بأن هؤلاء يفكرون بعقلية المخاتير وليسوا كسياسيين. لأن السياسة هي فن الممكن أولا وأخيرا. فقد كان همي الأول والأخير أن أوفر الأمان ومصادر العيش الشريف لأبناء الضفة الغربية.. فأنا الطرف المسؤول عن الفلسطينيين في تلك الفترة جنبا إلى جنب مع الأشقاء الأردنيين، وقد وجدت تعاونا حقيقيا من الإخوة الأردنيين وحرصهم الشديد كالمعتاد على استقلالية القرار الفلسطيني.

وفي السنوات العشرين الأخيرة بلغت العلاقات الأردنية الفلسطينية حدا رائعا من التكامل والتنسيق بين جلالة الملك الحسين والرئيس ياسر عرفات وخاصة عندما سقطت الطائرة بالرئيس أبو عمار في صحراء ليبيا. عندما أتى الرئيس عرفات في زيارة إلى الأردن لزيارة الملك الحسين شعر الملك الحسين بأن الرئيس أبو عمار في حالة دوخان ووجع رأس شديد فأمسك بيده وادخله إلى المستشفى لإجراء الفحوصات وتبين أنه عنده نزيف في الدماغ على أثر حادث سقوط الطائرة في صحراء ليبيا. فأخذ الملك على عاتقه أن تجرى العملية لأبو عمار على أيدي أكفأ الأطباء في الأردن. وهكذا أنقذ حياته. وكانت العلاقة حميمة جدا بين الملك حسين والرئيس عرفات.

وحققت الرؤيا التاريخية بين الزعيم الفلسطيني أبو مازن وجلالة الملك عبد الله في العشر السنوات الأخيرة قمة التنسيق والتكامل والمودة والاحترام، ولا أدلُ على ذلك من وجود جلالة الملك العظيم بين أبناء شعبنا وفي ضيافة قائدنا. فقد وضعت هذه الزيارة حدا لجميع المخاوف التي تنتاب الشعب الأردني أو الشعب الفلسطيني فهي مؤشر حقيقي على التكامل والاستقلالية وليست مجرد زيارة مجاملة وتهنئة ولكنها تحمل رسالة مؤداها أن هناك دولتين لكل منهما شرعيتها واستقلاليتها ودستورها.. فالأردن تقابله فلسطين. وفي أي مخطط مستقبلي للكونفدرالية الفلسطينية الأردنية سيكون واردا على نحو ما كانت السياسة المعلنة لمنظمة التحرير الفلسطينية وهو أن الكونفدرالية ستتحقق عندما يتم استقلال دولة فلسطين.

(2012/12/7)

المحامي فؤاد شحادة

شاهد على عصر فلسطيني حافل في الصحافة والسياسة والقانون

فؤاد شحادة.. اسم وعلم في عالم القانون، فارس يواصل النضال من أجل الحق، تجذّر في الوطن الذي يحبه حتى أصبح معروفاً بأصالته كزيتون فلسطين. لم يركع ولم ينحنِ أمام ظلم الزمن، وأمام الحادث الأليم الذي أدى إلى فقده نظره.

كان دائماً يردد هذه مشيئة الله. كان ذلك الحدث الأليم على طريق نابلس- جنين فقد تدهورت سيارة الأستاذ فؤاد، ووقعت في قاع الواد وبأعجوبة نجا هو وأبناؤه الثلاثة نديم وكريم ونبيل، وعند سماع الخبر امتلأ مستشفى رفيديا في نابلس بآلاف من الناس، وكانت المسيرات تتدفق من كل المناطق متجهة إلى نابلس للاطمئنان على الأستاذ فؤاد، ولم نستطع بسهولة الوصول إلى المستشفى قادمين من رام الله للاطمئنان على صحته بمجرد أن سمعنا الخبر.

كيف يحب الناس فؤاد شحادة كل هذا الحب؟

كان رؤساء البلديات من جنين ونابلس وطولكرم وقلقيلية ورام الله ضمن الشخصيات الوطنية والشعبية التي هرعت إلى المستشفى، وكل الوجوه التي نعرفها من القدس ورام الله وبيت لحم.. حكمت المصري، حمدي كنعان، الحاج معزوز المصري، حلمي حنون، وصفي المصري، موسى الجيوسي، إلياس فريج، وهناك فيض من المحامين والقضاة من الضفة الغربية. لقد أصبحت الحديقة أمام المستشفى وكأنها تظاهرة وطنية، وكان الدكتور فارس مسعود، والدكتور سميح طقطق، والدكتور مسعود الخياط في غرفة العمليات، وكانوا يطمئنوننا بين لحظة وأخرى وهو تحت العمليات.

المواطنون تبرعوا بالدم، وزوجي داود تبرع بدمه، وكنت مندهشة وأسأل كيف يحب الناس فؤاد شحادة كل هذا الحب؟ السر يكمن في كلمة واحدة "الأخلاق".

أخلاق الأستاذ فؤاد، وخدمته، وحبه للناس، لا أحد يجاريه في عطائه الثري، وعرفت يومها أن الإنسان هو إنسان بحجم ما يقدمه من عطاء، وبحجم ما يقدمه للإنسانية وللوطن.

دفاعاً عن زياد أبو عين

لا يزل الأستاذ فؤاد يعمل بانتظام رغم فقد نظره على أثر الحادث الأليم والعملية الناجحة التي أجراها الدكتور الشهير المرحوم أنطون الترزي لإزالة النزيف من رأسه. رغم فقد نظره ما زال يذهب إلى المحاكم العسكرية للدفاع عن المعتقلين، وأذكر أنه ذهب إلى مدينة الرملة للدفاع عن المناضل زياد أبو عين، وكان الوضع الذي يسود البلاد في ذلك اليوم صعباً، فقد كانت هناك عملية فدائية في القدس، وكان الوضع الأمني خطيراً، وكانت المحكمة العسكرية في الرملة مليئة بالقضاة والمحامين الإسرائيليين الذين كانوا يستمعون إلى دفاع الأستاذ فؤاد. كان قلبه وعقله في كلماته، في بلاغته. كان قلبه في صوته الذي كان يدوي في المحكمة العسكرية في الرملة، وكان مشحوناً بالصدق والعروبة والأصالة وهو يدافع ببسالة عن المناضل الفدائي. كان لا يرى القضاة ولا أهالي السجين الذين كانوا متأثرين بموقف هذا الإنسان النبيل المخلص لقضايا أمته.

وكان في كلماته صدق وشجاعة وإخلاص لقول كلمة الحق. كان يزرع الأمل في كل بيت في فلسطين، وكان صوته في قاعة المحكمة وهو يدافع عن الفدائي زياد أبو عين بسبب ما قامت به الحكومة الأمريكية عندما أبعدته وسلمته إلى إسرائيل لكي يحاكم بعد أن سجنته في السجون الأمريكية.

كانت الرملة في ذلك اليوم المشهود تفيض عروبة وانتصاراً وأصالة. كان عبير أزهار البرتقال يملأ قاعات المحكمة، وكانت فلسطين شعلة متوهجة من خلال صوت هذا الرجل بما فيه من شموخ الصنوبر وصلابة السنديان، وبما يفيض داخله من العطاء الذي يشبه هذه الأشجار،فقد كان العطاء أبرز سمات هذا الرجل.

لبيبة وفؤاد .. شبيه الشيء منجذب إليه

عرفت شريكة عمره الإنسانة العظيمة النبيلة "لبيبة" أم الوليد من أجمل نساء الكون روحاً وشكلاً. عرفتها منذ أكثر من أربعين عاماً، ولقد فارقت الحياة وهي لا تزل في ربيع الشباب. كانت لبيبة حياته وروحه ويده اليمنى عندما فقد نظره، وبموت لبيبة لم يستسلم للحزن، ظل ينبوع العطاء والالتزام على رأس عمله. نقف اليوم إجلالاً واحتراماً ووفاءً للمعلم الكبير الذي أعطانا أروع الأمثلة في الوفاء، وأعطى ينبوعاً من العطاء من خلال تلاميذه وأبنائه كريم ونديم ووليد ونبيل، ومن خلال جيل من المحامين الذين تتلمذوا على يده. لقد أكمل الحلم بالرؤية، بل إن رؤيته شملت الكون كله، وكان الأستاذ فؤاد يبني ولا يهدم. كان ثورة ضد الاستسلام واليأس.

الشاعر جون ميلتون.. مثله الأعلى

إن فؤاد ظاهرة فريدة، فهو يحتضن كل الأشياء الجميلة في هذا الكون، إنه مثل للأجيال الشابة وهو منسجم مع ذاته، ملتزم يذهب كل يوم إلى عمله في مكتبه في رام الله في الصباح الباكر ويواصل عمله حتى المساء، إن روحه ما زالت تصبو إلى العطاء والخير والإنسانية.

وكان يحب أن يردد أشعار جون ميلتون الشاعر الانجليزي المعروف الذي فقد بصره والذي جاء في شعره:

"عندما فقدت نظري ورؤيتي كأنه قضي علي وأنا في نصف عمري في ذلك العالم الأسود الواسع الظلام. وهذا كان كفيلاً بأن يؤدي إلى موتي ولكن ذلك لا يعنيني لان روحي باقية."

وهذا الشاعر استمد منه فؤاد شحادة الإيمان والعزم والقوة، فقد وضحت قوته وإيمانه في عقائده وأفكاره، وكان يقول: إنني لا أقدم الشكوى إليك يا إلهي ولا أقدم لك رصيداً أو حساباً ولا أطلب منك سوى الصبر. وكان يتساءل أحيانا كيف مضت حياتي وأيامي وكيف ذهب بصري ورؤيتي قبل منتصف عمري. ولكنه لم يكفر بالله ويقول أنا لا أطلب من الله سوى الصبر.

تأملات في حياة فؤاد شحادة الإنسان

لا شك أن مهنة المحاماة في حاجة إلى شخصية معينة ذات تركيبة إنسانية أو أخلاقية تمتاز بالقوة. إنها مهنة في حاجة إلى شخصية مقاتلة. قادرة على التحدي. فالمحامي يخوض غمار الحياة وسط معارك طاحنة، وعبر بحر متلاطم من الخلافات والنزاعات، والجرائم والضحايا.. والأبرياء والدموع والمظلومين.

لهذا كله كانت تركيبة المحامي الممتاز نسيج مميز من الصلابة والقوة والتحدي.

وهذه السمات التي عرضناها أبعد ما تكون عن شخصية وخلق المحامي الرائد فؤاد شحادة، فهو إنسان وديع، مسالم، متواضع، محب لكل من حوله وما حوله، وهو دائرة معارف إنسانية في تاريخ وأعلام فلسطين وفي الصحافة الفلسطينية والسياسة الفلسطينية ومع ذلك فهو عف اللسان، ودود، يفيض من وجدانه وفكره ونبض قلبه بالحب والتسامح والأخوّة. لا يحقد ولا يكره ويرى الجانب المشرق من الناس دائماً، ولا يرى إلا النصف الممتلئة من الكأس.

أمضى فؤاد شحادة أكثر من اثنين وستين عاماً في المحاماة، فهو رائد بحق وأستاذ ومرجع وذاكرته متوهجة وقدراته حاضرة يستطيع أن يروي أدق التفاصيل عن أعلام فلسطين في رام الله والقدس وحيفا ويافا وغيرها.

وهو لا يركب موجة الذات ولا يحاول أن يخوض غمار النرجسية وهو يعرض هذه المواقف متجنباً دائماً الجانب الذاتي في قصص حياته ومواقفه مع أنه عاصر وساهم وصنع أقلاماً وكُتّابا ورواداً في حقلي المحاماة والصحافة.

عندما تجلس معه تجده يتدفق في الحديث بأسلوب عذب، ولغة سليمة، وقدرة رائعة على الأداء اللغوي الخالي من الأخطاء. ويستذكر فؤاد شحادة أنه كان عاشقاً للغة العربية منذ سنوات الصبا ويقول: لقد كنت في الثانية عشرة من عمري أساهم في تحرير مرآة الشرق التي كانت يصدرها والدي وكانت لدي القدرة ولا زالت على ترجمة العديد من المقالات.

وعندما يتحدث أبو الوليد عن ذكرياته يقول:

لست بطلاً ولم أصنع ما يؤهلني لأدخل صفحات الكتب، أو أحتل أنهار الصحف: أنا إنسان بسيط، عادي، أمضيت أكثر من ستين عاماً في خدمة العدالة والقانون.

والوفاء صفة نادرة يعتز بها فؤاد شحادة، فهو عندما يتذكر رفيقة حياته ماري صروف يتدفق ببيان يقطر عذوبة ورقة وحناناً، وهو عندما يتعرض لذكرى أخيه عزيز شحادة يتحدث عنه بأسلوب التلميذ المعجب بأستاذه، رغم أن الشقيقين خاضا تجربة الصحافة والإعلام والمحاماة جنباً إلى جنب.

وعندما يتحدث عن أبنائه وتلاميذه، تجد في حديثه فيضاً من الأبوة والاهتمام والرعاية ممزوجة بالإعجاب والتشجيع.

إن فؤاد شحادة علم من أعلام فلسطين، فهو من أوائل المحامين في فلسطين وهو سجل وثائقي لأحداث رام الله والقدس من النواحي السياسية والاجتماعية والنضالية، وهو مصدر من مصادر القانون، وهو فيض نبع ومحبة وأستاذية، وهو مثقف ونابغة ومرجع هام، في كل ما يتعلق بقوانين العدالة في شتى مراحلها، وتقلباتها في فلسطين.

وهو فوق ذلك كله قارئ نهم مثقف، وصاحب مكتبة ضخمة، وصديق شخصي لأعلام الصحافة الفلسطينية ورموزها في الماضي والحاضر ومنهم أكرم زعيتر، وأحمد الشقيري، ومحمود أبو الزلف، وغيرهم.

ولدت في أحضان صاحبة الجلالة

ونترك المجال للأستاذ فؤاد شحادة ليروي بنفسه شريط حياته.

ولدت في مدينة القدس يوم 1925/7/13 لأبوين الوالدة اسمها ماري صروف والوالد بولص شحادة.

وكان الجو منذ العام 1919 متفجراً بالأحداث حيث كان والدي يدير ويحرر ويمتلك صحيفة "مرآة الشرق" والتي كان امتيازها باسمه أيضاً، وكانت في بادئ الأمر تصدر أسبوعياً، وفي بعض الأحيان وعند ورود أنباء مثيرة كانت تصدر يومياً، وما أكثر الأنباء المثيرة التي كانت تجتاح فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان نهاية الانتداب وبدء التحضير لإقامة دولة إسرائيل.

وكان أحمد الشقيري في بعض الأحيان يتولى رئاسة تحريرها، كما كان أكرم زعيتر يقوم بنفس المهمة وهم شخصيتان مرموقتان كانا مرجعاً هاماً للقضية الفلسطينية، وكانت مقالاتهما تثير الضجة والاهتمام في العالم العربي.

الوالدة صحافية رائدة

وكانت والدتي تشترك مع والدي ومع مجموعة من المحررين في إصدار الجريدة، وكانت تكتب وتحرر وتشترك في إصدار الجريدة كما كانت تشارك في النشاطات الاجتماعية والسياسية العامة.

وفي العام 1941 كانت الوالدة مسؤولة في إذاعة القدس عن البرامج الأدبية وصادف ذلك بعد وفاة الشاعر إبراهيم طوقان بأسبوع وأذكر أن والدي كان يبكي إبراهيم بصورة مؤثرة.

كانت صحيفة والدي منبراً لجميع أدباء فلسطين وكانت تميل إلى حزب الدفاع حيث ربطت صداقة متينة بين والدي وبين سليمان طوقان وراغب النشاشيبي وعمر البيطار وغيرهم من أقطاب هذا الحزب.

وقد توفي والدي في العام 1943 في القدس، أما أنا فقد ولدت في القدس ووالدي في رام الله ووالدتي لبنانية ولكن والدي نشأ وترعرع وتعلم في مدرسة صهيون بالقدس. ومن أصدقائه الذين تأثرت بهم في تلك الفترة خليل بيدس الذي كان يدرسني منذ أن كنت صبياً في السادسة من عمري.

في ربوع مدرسة المطران

تلقيت تعليمي في مدرسة المطران بالقدس وهي مدرسة إنجيلية تبشيرية كان يديرها الانجليز، وكانت لغة التعليم فيها اللغة الانجليزية وأمضيت فيها حوالي ثماني سنوات ابتدأت من الصف الرابع الابتدائي وأنهيت التعليم الثانوي وبدأت أستعد للالتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت، وبعد تخرجي درست الحقوق في معهد الحقوق في القدس وأثناء دراستي في القدس، كان أخي المرحوم عزيز قد أصبح محامياً معروفاً في مدينة يافا.

تخرجت من معهد الحقوق في العام 1948 أي بعد حلول النكبة، ولكن قبيل انتهاء الانتداب البريطاني بعدة أشهر، وكنت منذ مراحل الصبا أميل إلى الصحافة فقد كنت أحرر في جريدة والدي، وكنت أترجم لها بعض المقالات، وكان أساتذتي في معهد الحقوق من الشخصيات المرموقة على المستوى السياسي والوطني ومنهم عمر صالح البرغوثي، وهنري كيتن، وعوني عزيز الداوودي، والشيخ حسام جار الله وغيرهم. كذلك كان هناك نفر من الأساتذة البريطانيين واليهود النابغين وكان المعهد يجمع بين الطلاب العرب والطلاب اليهود.

حادثة درامية على الطريق إلى القدس

وبعد أن أصبحت محامياً جئت إلى رام الله لأمضي عطلة نهاية الأسبوع برفقة والدتي وأحد أصدقائي المرحوم فايز المهتدي، ولدى عودتنا إلى القدس عند منتصف الطريق قرب مستوطنة النبي يعقوب أطلق علينا اليهود الرصاص حيث كانوا يرشقون كل سيارة عابرة بالرصاص وكان ذلك قرب بيت حنينا، وعلى أثر هذا الحادث الأليم استشهد المرحوم فايز المهتدي وأصيبت والدتي بسبع عشرة رصاصة وأصبت أنا بثلاث رصاصات، وتم نقلنا إلى المستشفى في القدس حيث توفي المرحوم فايز في المستشفى بعد وصولنا بمدة قصيرة، أما والدتي فقد أصيبت بعاهة دائمة في يدها ورجلها، أما أنا فقد تعافيت بعد ثلاثة أشهر، كان ذلك وأنا في الثانية والعشرين من عمري. وقبيل انتهاء الانتداب البريطاني بأيام قليلة تم نقلنا إلى عمان لاستكمال العلاج ومن ثم عدنا إلى رام الله.

اليد الآثمة تعتدي على بيت الأسرة

كان بيتنا في القدس مهجوراً ومحطماً، وقد سُرقت معظم محتوياته، ومن المفارقات العجيبة أنه بقيت بعض أجزاء من المكتبة لأن الكتب ليست مما يستهوي المعتدي.

عدت إلى رام الله وكان ذلك في نهاية العام 1949، وقد كنت أفكر بأن ألتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت للحصول على الماجستير، حيث كان هناك وعد بحصولي على درجة الدكتوراه، ولكن انعقاد مؤتمر لوزان في تلك الفترة جعل أخي يتصل بي ويحاول إقناعي بالعدول عن السفر والدراسة وقال لي إن هناك محادثات جدية لإقرار السلم بعد إعلان دولة إسرائيل وستشهد رام الله ومدن فلسطين فرصاً جيدة لمزاولة مهنة المحاماة. ولكن السلم لم يتحقق بل بالعكس فإن اليهود تشددوا في شروط الاتفاق ومن ثم عقدت الهدنة بين إسرائيل والأردن. وعند عودتنا كانت الضفة الغربية تدار بإدارة أردنية مدنية بعد أن أنهت الأردن الإدارة العسكرية وفتحنا مكتباً مشتركاً بيني وبين أخي منذ ذلك التاريخ المبكر وأنا مستمر في هذا المكتب حتى الآن منذ أكثر من اثنين وستين عاماً.

رفيقة الدرب في مشوار العمر

لم أؤلف أي كتاب في السياسة، ولم أؤلف أي كتاب في القانون ولكني قد أصبحت بكل تواضع من المحامين المعروفين في البلد بسبب الخبرة والثقافة وتعاقب سنوات العمر.

تزوجت في العام 1959 من المرحومة لبيبة حنا شامية من حلب، ومن مواليد القدس، وعاشت في بيت لحم وتزوجتها وهي في عمان وقد أنجبنا أربعة أولاد هم وليد ونبيل ونديم وكريم.

والأخيران محاميان درسا القانون في الولايات المتحدة وأصبحا محاميين منذ حوالي عشرين عاماً وهما الآن محاميان معروفان ويعملان معي ومع ابن أخي عزيزرجا عزيز شحادة، الكاتب والمؤلف والمحامي المعروف.

أحتفظ بمكتبة جامعةٍ للتراث القديم والحديث وأقرأ في الشعروالأدب والتاريخ والسياسة وأنا في الواقع متعدد الاهتمامات ولا أجد سعادتي إلا في القراءة.

أعلام في حياتي

من الأدباء والمفكرين الذين أقرأ لهم وتأثرت بهم أكرم زعيتروالشاعر إبراهيم طوقان والشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) الذي حصلت على ديوانه من مكتبة الجامعة العبرية بعد أن يئست من الحصول عليه في مكاتب الوطني العربي.

ومن الذين أقرأ لهم وأتأثر بهم أحمد الشقيري وأبو جميل عمر الصالح وقد قرأت مذكرات هذا الكاتب والمفكر التي صدرت في مجلدات كما قرأت كتب هنري كيتن بالانجليزية وجميع خطب أحمد الشقيري في الأمم المتحدة، ومن الذين أكن لهم صداقة عميقة وحبا صادقاً محمود أبو الزلف الصحافي الفلسطيني الرائد المعروف.

بعيداً عن السياسة

من القضايا التي ترافعت فيها ولا يمكن أن أنساها قضية الأموال المجمدة التي جمدها اليهود وأقيم بعضها في لندن وفلسطين ويومها كنت محامياً ناشئاً فاشتركت فيها مع أخي المرحوم عزيز شحادة.

وهي قضايا أقيمت ضد البنوك الأجنبية ومن بنك باركلز والبنك العثماني ونجحنا في النتيجة بإزالة التجميد الذي وضعته حكومة إسرائيل على هذه الأموال المنقولة وغير المنقولة وتقدر قيمتها في تلك الأوقات بالملايين.

دفاعاً عن أبناء وطني

بعد الاحتلال الإسرائيلي توكلت في العديد من القضايا أمام المحاكم العسكرية ودافعت بإخلاص وحرارة لإنقاذ بعض أبنائنا المعتقلين والمسجونين.

على أنني لم أشترك في السياسة طيلة حياتي لأن لدي فكرة واحدة لا أريد أن أنقلها لأي إنسان وأتركها لنفسي وذلك لأن الحال إذا ظل على ما هو عليه (يا مسعود فلن تبقى ناقة ولا قاعود).

وكما قال إبراهيم طوقان:

"في أيدينا بقية من بلادٍ فاستريحوا كي لا تطير البقية"

فأنا لا أتدخل مستجيباً لنصيحة أبي الذي قال لنا وهو على فراش الموت: أرجوكم لا تشتركوا في السياسة. وأستذكر الآن أن مطبعته حُرقت وأن صحيفته نُهبت وأنه تعرض للاغتيال ووجد الأمرين في حياته المهنية كصحفي رائد.

محامون لا أنساهم

ويقول الأستاذ فؤاد شحادة إنه يمثل هو وأخوه عزيز جيلاً من المحامين الرواد في فلسطين ولكن هناك أيضاً أعداد لا تنسى من المحامين الفلسطينيين النابهين الذين تشتتوا في القدس ويافا وحيفا ومن أبرزهم هنري كيتن، وأحمد الشقيري وهما ممثلان لفلسطين في هيئة الأمم المتحدة، وهناك أيضاً عمر الصالح، وايكاريوس، وهنري كيتن، ووديع البستاني، وحنا نقارة، وفؤاد عطا الله.

ويقول أبو الوليد إنه تأثر ببلاغة أحمد الشقيري وتأثر من الناحية العلمية بهنري كيتن وفي تواضع جم يقول لست في الواقع أقل منهما.

قراءات لا تنسى

أنا أقرأ كثيراً وفي كل المجالات ولكني عاشق لقراءة كتب السيرة الذاتية، فقد قرأت لأحمد الشقيري كتابه الرائع (أربعون عاماً في الحياة العامة)، كما قرأت السيرة الذاتية لأكرم زعيتر، وقرأت مذكرات عوني عبد الهادي مندوب الأردن في الجامعة العربية، وقرأت لعمر الصالح الأديب والمحامي واللغوي القدير.

صداقة لا تنسى

ويهمني أن أستذكر هنا الصديق محمود أبو الزلف الذي جمعتني به صداقة منذ سنوات الصبا الباكر.. كنا في الجامعة معاً.. وعشنا في القدس معاً.. تزاملنا.. وترافقنا طوال سنوات وسنوات.. ومن الرائع أن تنتقل هذه الصداقة مني إلى ولدي نديم وإلى أبناء الصديق العزيز الراحل أبو مروان.

والواقع أنه تربطني بالأستاذ فؤاد صداقة استمرت أكثر من ثلاثين عاماً وكان يواكب فيها نشاطاتي الصحافية والسياسية وكان يقول لي دائماً إن ما تقومين به على الصعيد السياسي والصحافي وجهة نظر إنسانية رائعة حيث تحاولين التوفيق بين الآراء والاتجاهات المختلفة المتطرفة بصبر وحكمة، ولا أقول إن هذا خطأ أو صواب ولكني أقدر لكِ هذا الدور الرائد ونبل أهدافك التي تحاول أن تجد الخلاص للشعبين.

(2012/4/6)

الدكتور غازي حنانيا

الطبيب المناضل .. جمع بين عبقرية الانتماء وعبقرية الإنجاز

الوفاء كلمة تعني الإخلاص، والإخلاص والوفاء هما منبع السعادة الإنسانية التي ينشدها كل إنسان والتي تثمر الحب بكل معانيه. هذا الرجل الحكيم الدكتور حنانيا هو الرجل الذي أحب وطنه، وأعطاه كل نبض مشاعره، كنت أراه يغادر المقاطعة ليلاً كل مساء وفي ساعة متأخرة يعود إلى بيته، كان يمكث قرب الرئيس (أبو عمار) أثناء فترة حصاره الصعبة، كان دائماً يريد أن يطمئن عليه وعندما يودعه يسأله ماذا يحتاج قبل أن يذهب إلى بيته.

وكان الرئيس يكنّ له كل الحب والتقدير منذ أن كان عضواً فاعلاً في اتحاد الطلبة الفلسطينيين في ألمانيا مع رفيق دربه عبد الله الأفرنجي وصديقه هائل عبد الحميد (أبو الهول).

كان هؤلاء الرفاق في ألمانيا من أنشط الشباب الداعي إلى قضية فلسطين وكان عرفات يشعر بجديتهم ويكن لهم الحب والتقدير. وقد تعرض هؤلاء الشباب ومئات غيرهم من أبناء فلسطين إلى المطاردة والاعتقال والسجن والإبعاد بعد حادثة ميونخ ومصرع الرياضيين الإسرائيليين.

آلاف من الشباب تركوا دراستهم وأبعدوا وسجنوا من قبل السلطات الألمانية التي كانت متعاونة مع الموساد الإسرائيلي، لقد أفرغوا ألمانيا من خيرة الشباب العرب الفلسطيني الذين كانوا يدرسون هناك، غير أن هذه الحادثة وهذا العقاب لم ينل من عزيمة هؤلاء الأبطال ومن تصميمهم على مواصلة دراستهم وكان في طليعتهم غازي حنانيا.

لقد زادت المأساة من عزيمة هؤلاء الشباب وزادت من عطائهم، لقد كانوا من خيرة شباب فلسطين فأكملوا المسيرة رغم المعاناة والتفرقة العنصرية ضد العرب في ألمانيا وخاصة الدكتور حنانيا وعبد الله الأفرنجي ممثل منظمة التحرير في ألمانيا الذي أكمل المسيرة النضالية.

الألم يفجر طاقات العطاء

لقد استطاع هؤلاء الشباب بما كانوا يقومون به في ألمانيا من استقطاب السياسيين والكُتّاب والأحزاب اليسارية الألمانية بل امتد تأثيرهم إلى الأحزاب اليمينية الذين تأثروا جميعاً بنضال الشعب الفلسطيني

العادل رغم محاولات إسرائيل المستمرة لابتزازهم وتذكيرهم بعقدة الذنب المزعومة باعتبار أن الشعب اليهودي كان ضحية النازيين.

وكل هذه المحاولات لم تغير من جوهر المفكرين المناضلين الأحرار الموضوعيين وفي طليعتهم غونتر غراس الذي هز شعره العالم هذا الأسبوع، والتي قامت إسرائيل عن بكرة أبيها لمهاجمته ومحاولة إلقائه إلى العدم بل هاجمت شعره وموقفه بصورة هستيرية غير أن هذا الشاعر الرائع قال لن أسكت بعد اليوم على إسرائيل، إن إسرائيل تهدد بمهاجمة إيران النووية مع أنها تمتلك ترسانة من القنابل الذرية تهدد بها العالم كله وهذا الموقف المزدوج المنافق الكاذب من السلطات الإسرائيلية وأنصارها لن يجعلني أسكت أو أخاف أو أتردد فالحقيقة لها وجه واحد.

يد تحمل الكتاب ويد تناضل من أجل فلسطين

هناك نخبة رائعة من أبناء فلسطين ممن نضج وعيهم، وتفتحت قدراتهم وأينعت عقولهم وأذهانهم منذ سنوات الصبا الباكر. فشبوا وترعرعوا على الجمع بين الدراسة الجامعية.. وهم في ريعان الشباب، وحب فلسطين وتكريس كل ساعة من ساعات حياتهم من أجل تحريرها.. وإعلاء كلمتها وإقامة كيانها حرة عربية أبية. وكان ذلك خلال عقد الستينيات من القرن الماضي.

من هؤلاء الشباب.. صلاح خلف، وياسر عرفات، وعبد الله الإفرنجي، وأمين الهندي، ونبيل نصار، ونبيل شعث، وسامي أبو سليم، وزهير المناصرة، وهاني الحسن، وعبد الحميد أبو الهول، وزهير قبعة، ونبيل قليلات، وكثيرون غيرهم.

وكان غازي حنانيا واحداً منهم..

منذ سنوات دراسته الأولى في المراحل الابتدائية والثانوية، كان مسكوناً بحب فلسطين مندفعاً لكل ما في الشباب من قوة وعنفوان للعمل الوطني البناء.

الوطنية الصادقة تعمل ولا تتقَوّل

إن الوطنية الصادقة هي التي تعمل ولا تتقَوّل، هي التي تخطط وتبني وتؤسس.. تغرس بذرة القمح، وتضع لبنة الطوب وتصنع حبة الدواء، وتقيم المدرسة والعيادة والمشفى، وتمسح دمعة الألم والأسى عن مقاتل جريح أو مناضل باسل، رفض أن يموت فظل صامداً ثابتاً على أرض فلسطين، لأنه وجد قلباً ينبض مع قلبه ويداً تمتد إلى يده، وساعداً يشد أزره، وصديقاً يداوي جراحه ويمسح دموعه، ويخفف مصابه.

ليست الوطنية قصائد شعر، ومقالات حماسية، وخطباً رنانة، وبيانات تفيض بلاغة وعذوبة وتتفجر ناراً ونيراناً.

هناك لون من الوطنية الصادقة الملتزمة التي تجمع بين العلم والتخطيط والعمل البناء.. هذه الوطنية التي تعمل بصمت، والتي بفضلها يرتفع علم فلسطين عاليا خفاقا بين الدول لأنه يزهو بهذه الكوكبة الرائدة من الرواد ممن آمنوا بأن فلسطين قدرهم، وأن عليهم أن يجمعوا بين عبقرية الدراسة والعلم وبين عبقرية الانتماء والنضال لتحرير الوطن.

عصامية مبكرة في حواري رام الله

ولد غازي حنا خليل حنانيا عام 1946 في مدينة رام الله في حارة "دار إبراهيم" لأب يعمل في دكان بقالة متواضع، وتلقى تعليمه الابتدائي في الكلية الوطنية التي كان مديرها خليل أبو ريا، وانتقل إلى الكلية الأهلية لإتمام دراسته الثانوية التي كان مديرها إبراهيم حنانيا- ابن عم والده- وتسهيلاً لالتحاقه بالجامعة درس على نظام التوجيهي المصري في الكلية الأنطونية القبطية بالقدس.

كان جدي يعمل تاجراً، وعندما اندلعت ثورة عام 1936 أخرجَ جدي والدي من المدرسة ليساعده في عمله فانقطع عن الدراسة- رغم تفوقه- وكان يومها في الرابعة عشرة من عمره. وقف إلى جانب جدي لإدارة محل صغير للبقالة في رام الله القديمة، ومن يومها وهو يعمل في التجارة إلى أن رحل عن عالمنا منذ شهر ونصف تقريباً.

ويتوقف الدكتور غازي قليلاً، وألمح في عينيه الواسعتين بريق دمعة وفاء وشجن.. ويواصل حديثه:

تعلمت من والدي الجد والمثابرة والإصرار على الهدف.. ولذلك صمم والدي على أن يدرس كل أبنائه في الجامعة.. أربعة أولاد وثلاث بنات كلهم تخرجوا من الجامعات الأمريكية بتفوق.. درسوا.. وعادوا إلى ربوع الوطن وهم جميعهم الآن في رام الله.

وعن فترة دراسته الثانوية يقول الدكتور غازي:

- تفتح وعيي السياسي والوطني على يد اثنين من أساتذتي، الأستاذ منذر صلاح مدرس الرياضيات، والأستاذ وليد موسى مدرس العلوم. وكان كلاهما قد جاء من القاهرة، وفي رأسيهما أفكار عن النشاطات والفعاليات الطلابية التي تُنَمّي في الطالب روح الوطنية والالتزام.. وبتوجيه ورعاية هذين المعلمين، وبتشجيع من مدير المدرسة الأب إبراهيم.. وهو مسيحي قبطي.. كان يحفظ الإنجيل والقرآن بل إنه كان يحفظ القرآن أكثر من الإنجيل.. بوجود هؤلاء الرواد قمنا بإنشاء اتحاد طلبة للمدرسة: وذلك لغرس بذور الوعي الوطني الفاعل في صفوف الطلاب، وكان ذلك في عام 1963 في ذروة المد الناصري الثوري.

وكانت جرائد الحائط.. متنفساً للطلاب.. يكتبون فيها ما يشاءون بحرية تامة وكان يوسف المعشر، ونبيل قسيس ممن لهم إسهامات رائعة في هذا المجال.

نستمر فقط بالجدية والنبوغ

تقدمت إلى امتحان التوجيهي المصري- القسم العلمي- وحصلت على معدل 78%.. وكانت المعدلات في الشهادات المصرية ضنينة جداً، فالأول على القسم العلمي عندنا لم يكن يتجاوز معدله 82%.. وكانت ألمانيا طموحي.. وهدفي.. لأني كنت مفتوناً بالعقلية الألمانية.. بما عرف عنها من ذكاء وجدية وصبر ومثابرة.. ورغم هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية إلا أنها نهضت من كبوتها وتغلبت على جراحها.. وتقدمت في مجالات العلم والتصنيع وكل مظاهر الحياة بصورة رائعة.. وهذا درس نتعلمه من التاريخ أانك قد تقع وقد تكبو.. ولكنك قادر عل النهوض والانتصار متى كنت تمتلك الإرادة.

كان عام 1964.. هو أول عام أمضيه في ألمانيا.. كانت سنة تحضيرية لإتقان اللغة، وبعد أن أمضيت سنتين في الكلية، تقدمت للحصول على بعثة.. كانت هناك خمس بعثات دراسية.. يتقدم آلاف الطلاب من كل الجنسيات للفوز بواحدة منها.. وعندما تقدمت.. وأعلنت النتائج كان اثنان من الفائزين من فلسطين أنا

وزميل آخر وذلك بين آلاف المتقدمين. وكان من شروط استمرار البعثة أن يحضر الطالب كل ستة شهور شهادتين مختلفتين من أساتذته على أنه متفوق.. وإلا فانه يخسر البعثة. وكان هذا الشرط حافزاً قوياً يدفعني للجد والاجتهاد، وبانقطاع مواردي المالية على أثر هزيمة 1967 ازددت إصراراً على التفوق والنجاح.

الكتاب في يميني وعلم وطني في يساري

كانت الدراسة هدفاً.. وطموحاً.. والشهادة أملاً وغاية.. ولكن، كانت هناك فلسطين.. كان هناك وطني.. يتجسد دائماً أمام مخيلتي.. وكان لا بد من النضال من أجل هذا الوطن.. وهذا التوجه الوطني كان موجوداً لكل الطلاب الفلسطينيين في ألمانيا، ومن هنا أخذت أسعى للانضمام إلى "اتحاد طلبة فلسطين".. لأصبح بعد فترة وجيزة "سكرتيراً لكونفدرالية ذلك الاتحاد".

كان عدد الجامعات في ألمانيا في تلك الفترة أربعون جامعة وكلية وكان مركز الاتحاد في "فرانكفورت" حيث كنت أدرس.

وكانت هناك كوكبة من أبناء فلسطين الدارسين في ألمانيا ممن تفانوا في أداء دور ريادي وطني، أذكر منهم عبد الله الإفرنجي، وأمين الهندي، والدكتور نبيل نصار، وسامي ابو سليم، وزهير المناصرة، وهاني الحسن، وعبد الحميد أبو الهول.. كما كان هناك زملاء سبقونا ومنهم زهير قبعة، ونبيل قليلات.. وغيرهم.

استمرت فترة دراستي في ألمانيا سبع سنوات حيث تخصصت في جراحة الفن والأسنان.

آفاق العمل الاجتماعي والإنساني

ومن خلال عملي في اتحاد طلبة فلسطين.. توثقت علاقاتي بالهلال الأحمر الفلسطيني.. فقد عملنا على أن يكون له فرع في ألمانيا.. وبل وحرصنا على أن يكون له فروع في كل المدن الأوروبية، بل إننا سجلنا الهلال الأحمر كجمعية خيرية في ألمانيا.. ولا يزال التسجيل حتى اليوم باسمي. كما تم افتتاح فرع للهلال الأحمر الفلسطيني في القاهرة برعاية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

جراح أيلول عام 1969

على أثر اندلاع حرب أيلول عام 1969 استطعنا بالتنسيق مع الهلال الأحمر الألماني أن نقدم مساعدات هامة لشعبنا في الأردن ولبنان.. وذلك من خلال علاقاتنا بالأحزاب الألمانية وخاصة حزب الخضر، وقمنا بإرسال أربعين أخصائي ألماني بالإضافة إلى عشرة أخصائيين فلسطينيين، وخمسة أخصائيين عرب.. كما تم تأمين ثماني عشرة سيارة إسعاف، وكانت شركة "ميدل إيست" ترسل يوماً بعد يوم حمولة طائرة إلى الأردن.. كنا نُجمع الأدوية ونكدسها ثم نفرزها ونضعها في صناديق ومن ثم نشحنها إلى المطار ومن المطار إلى لبنان والأردن.

بوتفليقة صديق فلسطين

كان الحضور الفلسطيني في ألمانيا عالياً.. وكانت لدينا علاقات طيبة مع الأحزاب اليسارية الألمانية وكنا نصدر مجلة باسم "المقاومة" - "رزستينا" وكان الدكتور نبيل نصار يشرف على تحرير هذه المجلة.

وكانت علاقاتنا طيبة مع وزارة الخارجية الألمانية.. فكنا ندعى إلى حفلات الاستقبال التي تقام للوفود الأجنبية، وبلغت ثقتهم بنا أنهم لجأوا إلينا للإفراج عن بعض المسافرين الألمان في موجة اختطاف الطائرات التي قام بها وديع حداد.

وكان الرئيس الجزئري الآن بوتفليقة، له علاقات مميزة مع الألمان.. وكان يومها وزيراً للخارجية، وقد ساعدنا كثيراً في توثيق علاقاتنا مع الألمان.

عائد إلى رام الله

بعد أن أنهيت دراستي.. وعلى أثر أحداث عملية ميونخ الشهيرة عدت إلى رام الله.. لأدخل في صراع عنيف مع السلطات الإسرائيلية التي فرضت علي الإقامة الجبرية في البيت لمدة ستة شهور وفي صباح كل يوم يأخذونني إلى التحقيق.. ليفرج عني في المساء..

وتمضي الأيام.

في عام 1976 قمنا بإنشاء جمعيات جديدة تحت اسم "جمعية أصدقاء المريض" وكانت هذه السلسلة من الجمعيات في رام الله والخليل ونابلس.. بالتعاون مع "أبو جهاد" وكانت هذه العيادات، عيادات صغيرة، تقدم خدماتها للناس، كما تقوم بتنظيم المحاضرات الطبية للتوعية. ولما كانت هذه النشاطات خارج ما يسمى روابط القرى في تلك الفترة.. فقد تعرضت للإغلاق. ومن هنا فقد كنا نفتتح هذه العيادات بالتعاون مع مؤسسات أجنبية تعمل في القدس، وهكذا استطعنا تأسيس العديد من العيادات.. وقد تراوح عددها بين 12 إلى 15 عيادة وكانت أول عيادة في قرية بلعين.

ازدواجية مرفوضة

مع انطلاقة الانتفاضة عام 1987، حصل شيء غريب، فمع سقوط أي شهيد في أي قرية.. كانت القرية تؤسس "عيادة" ولما كنا ضد الازدواجية، فإننا كنا نسارع بنقل العيادة التي تتعرض للمنافسة إلى قرية أخرى.

ومع مجيء السلطة قمنا بتسليم هذه العيادات إلى وزارة الصحة.

الهروب من جهنم

وفي غمار الانتفاضة الأولى سقط آلاف الجرحى والمصابين، والمعاقين، الذين كانوا في حاجة ماسة إلى عناية خاصة مختلفة، وقد زار الضفة الغربية في تلك الفترة استن أندرسون وزير خارجية السويد، وعندما زار مستشفى المقاصد بالقدس.. وشاهد مئات الجرحى في الممرات وخارج الغرف، وهم على الأرض ولا مكان لهم، تأثر بشدة، ولما سُئل، ماذا شاهدت داخل المستشفى أجاب:

- it is a hell .. أي جهنم. وقد استفدنا من هذا المقولة.. وبدأنا نطلب المساعدة لإقامة مستشفى تأهيل في فلسطين، وفي بادئ الأمر بدأت المساعدة بإرسال وفد من الأخصائيين، وكان ذلك عام 1970.. وبمساعدة فتحي عرفات تم إرسال عدد كبير من المرضى إلى ألمانيا، ومن ثم معالجتهم وتأهيلهم.

وشعرت أن هؤلاء المصابين، في حاجة إلى مركز تأهيل لمساعدتهم، وبالتعاون مع الدكتور رستم النمري ومجموعة من أطباء وممرضي مستشفى المقاصد، بدأنا الخطوات العملية لإنشاء هذا المركز.. وكانت المبالغ المخصصة لدعم المشروع في حدود 25 ألف دولار ولكننا رفضنا استلام المبلغ.. وقلنا لهم إننا على استعداد لتقديم البناء.. والأرض.. وعليكم الباقي، وبالفعل تبرع الأستاذ خليل أبو ريا، وهو مربٍ فاضل ورجل جليل.. تبرع بالبناية وبتسعة دونمات من الأرض وذلك لإقامة مركز خليل أبو ريا لتأهيل المعاقين.. وقد بلغ عدد الحالات التي استفادت من المركز أكثر من 22.000 حالة.

نحن .. دائماً .. ولا مكان للأنا

ويقول الدكتور غازي.. الذي كان طوال حديثه يتكلم بضمير الجمع نحن.. ولم يقل مرة واحدة أنا فعلت ذلك.. ولكنه لم يجد مفراً من أن يعترف بأنه ظل طوال خمسة وعشرين عاماً وهو رئيس لجمعية أصدقاء المريض، ورئيس لمركز خليل أبو ريا.

أبو عمار .. صديق العمر .. ورفيق الدرب

يرتبط الدكتور غازي حنانيا بصداقة متينة مع أبو عمّار، صداقة قوامها المودة والحب.. والإخلاص.. والإيمان الشديد.. بأن الإنسان في هذه الحياة مخلوق ليسعد الآخرين، وليعمل لهم..

يقول الدكتور غازي: منذ اللحظات الأولى التي عاد فيها أبو عمار إلى الوطن في عام 1994.. وأنا مصمم على الالتقاء به. ولما قابلته في غزة بدأ يسألني عن أهل رام الله.. وكيف يعيشون في ظل الاحتلال، كان في صوته شجن، ورنة ألم.. وكانت كلماته تنم عن الحب الشديد لأهل هذه المدينة التي عاش فيها عام 1968.. عندما كان ينظم خلايا فتح.. حيث سكن في بيت من طابق واحد، ومن غرفة واحدة، في رام الله قرب مدرسة بنات رام الله الثانوية.. ولا يزل هذا البيت موجودا حتى الآن.

مع الرئيس في حصاره

في أيام الحصار القاسية، بينما الأباتشي تمطر السماء بالقنابل وبينما كانت الطبيعة في حالة ثورة والبرد والرعد والرياح تزمجر في الوديان وجبال مدينة رام الله كانت هناك عقيدة راسخة وإيمان قوي وأمل بأن الفرج سيأتي رغم ظلام الطبيعة وقسوتها ورغم الخوف من المجهول.

كان الشاب الحكيم غازي حنانيا يقوم بتأمين الخبز والحليب والأدوية لسكان مدينة رام الله، وكان قد أخذ إذناً ليفتح المخابز وليؤمن الخبز والحليب لسكان المدينة أثناء منع التجوال.

كانت سيارات الإسعاف تأتي بالأدوية إلى البيوت وكان الحليب يؤمن للأطفال أثناء منع التجول، كان غازي حنانيا يعمل بصمت مثل والده المحسن الكبير حنا حنانيا (أبو غازي) وكان يعمل ليل نهار على مساعدة الناس ومناصرة الحق. كان رجلاً ذا مروءة وشجاعة ومثل عليا، وكان يرسل سيارات الإسعاف لأخذ المصابين الذين سقطوا في مقر الرئيس في المقاطعة ويؤمن وصولهم إلى مستشفى الشيخ زايد الذي كان مسؤولاً عنه ورئيساً لمجلس إدارته، كما كان يؤمن لهم العلاج في مركز أبو ريا الذي كان شريكاً في تأسيسه ورئيساً لمجلس إدارته أكثر من عشر سنوات. كان الألم الذي طارده في أثناء صباه ونشأته ودراسته وكان قد

رأى الموت عن قرب أكثر من مرة، كل ذلك فجّر في نفسه طاقات العمل الإنسانية للتخفيف من آلام المصابين والمعاقين والجرحى.

كان يؤمن في قرارة نفسه بإعطاء الأمل للحياة والشفاء لكل إنسان يتعرض لمحنة الإصابة في ميدان المعركة.

لقد عاش الحصار مع أبناء شعبه ولم يكن مختبئاً رغم الأباتشي والدبابات، لقد أمّن الدواء والغذاء للرئيس المحاصر ورفاقه السبعين عبر سيارات الإسعاف وبكل الطرق الممكنة.

ضع يدك في يدي يا غازي لنعيدهم

يقول الدكتور غازي:

- قلت للرئيس أبو عمار أن أكثر من 35.000 مواطن من رام الله يعيشون في المهجر.

فقال:

- ضع يدك في يدي يا غازي.. وسنعيدهم. بالصبر والإيمان والعمل سنعيدهم إلى وطنهم.

ومنذ تلك اللحظة.. وأنا أحاول أن أكون عند حسن ظن الرئيس الصديق.. فقد كنت أسافر كل عام لحضور مؤتمر مغتربي رام الله.. وبالتعاون مع المحامي إلياس شامية، استطعنا أن نعيد 198 شخصاً.

وفي أول لقاء مع المغتربين.. اخذ أبو عمار يحدثهم عن الاستثمار في فلسطين.. وطلب منهم ترجمة وطنيتهم ومشاعرهم إلى سلوك وتصرفات.

لقد كان الرئيس على وعي كامل بأهمية أن يتواصل مع أهالي رام الله المغتربين.. ورغم أن اليهود احتجزوا السيارات المتجهة إلى غزة حوالي ثماني ساعات.. فقد ظل أبو عمار في انتظارهم.. حتى وصلنا إلى غزة الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ومن ذلك التاريخ حتى اليوم يتواصل حضور مغتربي رام الله حيث يعقدون مؤتمرهم السنوي كل عام في رام الله.. وحيث يستعيدون أغلى الذكريات.. ويعملون ويستثمرون.. ويتزوجون من أبناء بلدهم العزيز.

الرجل المناسب في المكان المناسب

بمرور الأيام، ونتيجة الاحتكاك اليومي، واللقاءات المتكررة مع أبو عمار.. وجدته مهتماً بالقطاع الصحي والعلاجي، ما دفعنا إلى التفكير في إقامة مجمع طبي عصري.. اقترحنا أن يكون اسمه مدينة عرفات الطبية، ولكن الرئيس رفض ذلك رفضاً باتاً، ومن ثم فإننا بالتنسيق مع بكدار ومديرها محمد شتية أخذنا في وضع حجر الأساس في "مجمع فلسطين الطبي". وكانت الضرورة الملحة هي التي فرضت إقامة مثل هذا الصرح الطبي الهام.. ففي عام 1996 حصل عندنا 95 حالة جراح بليغة ومتوسطة في يوم واحد، وكنا نتعامل معها في الشوارع والساحات العامة.. وكان لا بد من وجود مركز طوارئ.. وبمساعدة محافظ رام الله مصطفى عيسى "أبو فراس" ورئيس البلدية الدكتور عيسى زيادة تم إنشاء "مركز طوارئ رام الله الجديد" وهو الذي يطلق عليه اسم "الشيخ زايد" الذي تبرع للمشروع بمبلغ 600.000 دولار.

وبتكليف من سيادة الرئيس أبو عمار، عملت كرئيس لمجلس أمناء هذا المستشفى لمدة عشر سنوات.. كنا خلالها قد استكملنا كافة منشآت "مجمع فلسطين الطبي".. وثم اختيار مجلس أمناء جديد برئاسة وزير الصحة فتحي أبو مغلى- وكنت نائباً له.

كسر الحصار وعبور حواجز التجويع

في أحد الأيام اتصل بي الرئيس أبو عمار وقال لي.. لا تحضر إلى المقاطعة اليوم.. الحصار قادم والجيش الإسرائيلي بدأ يتحرك.. كانت لقاءاتي مع الرئيس يومية.. ومعروف عن أبو عمار أنه يتابع أدق التفاصيل المتصلة بحياة شعبه.. من خلال اختياره لنخبة من الرفاق.. وحاولت أن أناقشه في هذا القرار ولكنه كان حازماً.. وطلبه كان لا يقبل المناقشة.

وعندما فرض عليه الحصار الأخير كان معه عدد كبير من المسؤولين.. وكان علينا أن نؤمن المأكل والمشرب والدواء لأكثر من سبعين شخصاً.. وقد ساعدنا الأستاذ جميل الطريفي الذي كان يومها وزيراً للشؤون المدنية بالحصول على التصاريح اللازمة. وعن طريق سيارات الإسعاف وبعض الأصدقاء الأجانب تمكنا من مد المحاصرين بالمؤن والخضار والفواكه والدواء.. وعندما اكتشف اليهود الدور الذي يلعبه مستشفى الشيخ زايد ومركز أبو ريا.. حيث كنت مسئولاً.. تعرضنا للهجوم والتكسير والتخريب وشتى أنواع الممارسات القمعية.

مصداقية عالية ورؤى مشتركة مع رجال الدين المسيحي

من المعروف أن أبو عمار كانت تربطه صداقات متعددة، قوية، مع كثير من رجال الدين المسيحي في كل أنحاء العالم، ومن منطلق معرفتهم بتاريخ الرجل ومواقفه، ومع إيمانهم وشفافيتهم وتعاطفهم مع قضية الشعب الفلسطيني، كان العديد منهم يأتون لزيارة الرئيس في أوقات الحصار.. حيث كان من الصعب على القيادة الإسرائيلية منعهم.

كانوا في الواقع يرون فيه قائداً شجاعاً ومقاتلاً مميزاً وجندياً من جنود الحق.. ولذلك أحبوه وتواصلوا معه.

يقول الدكتور غازي:

في أحد الأيام.. وأنا جالس في مكتب الرئيس، أخبرني بحادثة غريبة.. فقد وصلته معلومات من مصادر موثوقة، بأن الإسرائيليين أرسلوا طفلاً إلى الجزئر، إلى إحدى الكنائس لكي يتعلم "اللاهوت" عن طريق كنيسة في الجزئر. وكان يهودياً فرنسياً.. وعندما كبر ذلك الفتى أصبح ذا شأن كبير في الكنيسة الفرنسية.

والمعلومات التي وصلت أبو عمار تقول إن الإسرائيليين يطالبون بفتح كنيسة في إسرائيل ناطقة باللغة العبرية. والهدف من ذلك استقطاب 700.000 روسي مسيحي لأنهم في حاجة إلى خدمات الكنيسة في الزواج، والطلاق، ومراسم الموت، وغير ذلك من الأمور ومن خلال تعاملهم مع الكنيسة الناطقة باللغة العبرية يمكن تحويلهم إلى الديانة اليهودية. وبحسه العالي وتفكيره وبصيرته تصدى عرفات لهذه المؤامرة.

أربعة رجال في مهمة خطيرة

وقد طلب مني أبو عمار.. أنا والدكتور رمزي خوري، وإميل جرجوعي، ومتري أبو عيطة.. أن نقوم بجولة لمقابلة القيادات الدينية المسيحية في عدة عواصم هامة لشرح الموقف ومطالبة رؤساء الكنائس المسيحية في فلسطين أن يهتموا بتقديم الخدمات الكنسية.. وخاصة للمسيحيين والروس. وقمنا بهذه المهمة في يناير عام 2003، بدءاً بموسكو، واليونان، واسطنبول، وروما، والقاهرة. وقد وفقنا في هذه الزيارات.. فقد كانوا يستقبلوننا بحفاوة رائعة عندما يعرفون أننا من طرف الرئيس عرفات ما يدل على مدى ما يتمتع به أبو عمار من حب هؤلاء الناس وتقديرهم وإعزازهم.. كانت الحفاوة التي استقبلنا بها شاهد حيّ على مدى صداقة وتقدير هذه القيادات الدينية الكبيرة للرئيس الفلسطيني.

لدى مقابلتنا للبابا شنودة في القاهرة عرفنا أنه كان زميلاً للرئيس عرفات في الجيش المصري.. وأنهما خدما معاً في فرقة واحدة.

وعندما قابلنا بابا الإسكندرية وهو رجل قبرص قال لنا بالحرف الواحد:

"أنا لم التق الرئيس عرفات بتاتاً.. ولكن أصلي له كل يوم".

وأستطيع أن أؤكد.. يقول الدكتور غازي حنانيا.. إنّ هذه الزيارة جعلت الجاليات الروسية تطالب بأملاكها وحقوقها التي نهبها اليهود واستولوا عليها من الانجليز.. خاصة وأن الرئيس عرفات كان مبادراً إلى إعطاء الكنيسة الروسية كل ما لها من أراضٍ وحقوق في مدينة خليل الرحمن.

بعيداً عن السلطة .. قريباً من الجماهير

يقول الدكتور غازي حنانيا بتواضع شديد:

لست رجل سلطة، ولا أحب أن أكون.. عشت حياة حافلة وخضت غمار معارك ضارية جندياً في كتيبة الإنسانية التي تخفف آلام الناس.. لا أسعى إلى الثروة.. ولا إلى الجاه.. ولا أحب الأضواء.. ولعل هذه المعطيات هي التي قربتني من الرئيس الراحل.. الذي كانت له بصيرة نافذة في الحكم على الرجال.

وعندما دخلت المجلس التشريعي عن محافظة رام الله في انتخابات عام 1996.. شعرت أنني أقترب كثيراً من تحقيق ما أصبو إليه.. لقد بذرت بذوراً خصبة على امتداد عشرات السنين من أجل أبناء شعبي.. حاربت الجشع والخوف والتردد والسلبية والأنانية.. والاتجار في آلام الناس ودموعهم وآلامهم وساهمت في إعادة العافية إلى أبطالنا وجرحانا.. ووقفت في وجه الطغيان.. بالعلم والعمل.. ولعل هذه البذور أتت كلها في حصاد الديمقراطية.

وحتى الآن.. فإني أرنو بتفاؤل وأمل.. لأرى رام الله.. لؤلؤة فلسطين مدينة الحب والأمل.. وأرى شعبنا نظيفاً عزيزاً.. حراً.. متعلماً.. معطاءً.. يُكرّم الأبطال والنابهين وفي طليعتهم صديقي الراحل ياسر عرفات القدوة أبو عمار.

(2112/4/15)

عطا محمد خليل القيمري

أتقنت في زنازين الاعتقال أربع لغات..

الخامسة.. كانت لغة التحدي وهزيمة الخوف والانتصار على السجان

تذكرت وأنا أستمع للصديق عطا القيمري وهو يروي لي لمحات من شريط تجربته النضالية.. كتاب يوسف وهبي "عشت ألف عام".. وذلك، لسخونة الأحداث، وقسوتها، وتنوعها، ومفارقاتها، وعنفها. ولأنها تثير الفكر والوجدان والشجن وتفجر براكين الغضب والثورة على فئة تاهت عن الإنسانية، وضلت في دروب الظلم والبطش والأنانية والعنصرية.

كنت أعرف "عطا" معرفة وثيقة.. فهو رمز من رموز النضال والثورة الفلسطينية.. حكم عليه بمؤبدين وخمسَ عشرةَ سنة.. وهو مفكر مبادر شجاع جريء، صادق في صفوف الجبهة الشعبية.. أدى دوراً قيادياً رائداً، ليس بالتنظير.. والتصريحات.. والمزايدات، بل بالعمل الثوري الفعلي كمقاتل حمل روحه على كفه.. وتقدم الصفوف وقال لرفاقه اتبعوني ولم يتأخر ليقول لهم تقدموا.

عرفت عطا ابن القدس.. سليل عائلة معروفة شاباً مناضلاً.. أنيقاً.. مرحاً.. مثقفاً.. ودوداً.. عاشقاً للثقافة والفكر.. نصيراً للضعيف في كل موقف.. سويّاً.. منسجماً ومتوازناً في كل ما يفعله وما يؤمن به.

لحظات شجن وبقايا دموع

ولكن الذكريات التي أثارها "أبو عمر" بكل ما فيها من مواقف، وظلم، وقهر، وقسوة، وتجنٍّ أثارت شجوني.. وحركت الدموع في عيني.. وبعثت في نفسي ووجداني موجات من الألم والحزن.. فلم أكن أتصور هذه الملحمة من الألم والقسوة والعذاب.. يتعرض لها هذا الشاب الغض الوديع.. الذي نشأ وترعرع وسط أسرة مقدسية ثرية.. تحيطه بكل أنواع الرفاهية.

الوطن غال، والإيمان بالمبدأ.. يحول الإنسان الصادق إلى طاقة هائلة من العمل والعطاء.. ولكن "حجم" الألم الذي صبه الباغي على المناضل الشاب.. فجر مشاعر الحزن والألم والدموع في وجداني.. وأبكاني.. وأمضيتُ ساعة أو بعض ساعة.. وأنا في حالة شجن.. وأسى.. أحاول أن أستعيد توازني وأجمع شتات نفسي الممزقة وأقاوم الدموع بكبرياء.. وتسامٍ وتعقل لبيب وفخرٍ نبيل.

أبو كايد شيخ الشباب

في القدس كانت البداية.. فقد ولدت في باب حطة بالبلدة القديمة، في بيت عتيق لعائلتي منذ مئات السنين وكان ذلك يوم 1955/9/14.. وكان أبواي بسيطين.. فوالدي كان أمياً، وكانت والدتي "حكمت" من عائلة الحكيم الشامية، وكنا نقيم جميعاً أنا وإخوتي وأخواتي في غرفة واحدة. والدي كان يعمل حلاقاً في بدء حياته، ومن ثم عمل في تجارة السيارات وأدار أعمالاً تجارية ناجحة.. كان أبي شديد الأناقة.. وسيماً.. مَهيباً ناجحاً في عمله يدير خط سيارات "دمشق- القدس" وكان أول من أدخل سيارات المرسيدس للبلاد بالتعاون مع صديقه "قِرِّش".

أما والدتي حكمت.. فكانت "حكاية".. كانت شديدة الجمال.. أحضرتها جدتي من دمشق وهي في الثانية عشرة من عمرها وتربت في أحضانها.. فلما بلغت سن الزواج.. تزوجها والدي.

في مدرسة الرجولة والأخلاق

ويتحدث عطا عن والديه بمفردات، ولهجة تفيض حبّاً وشجناً وزهواً وصدقاً.. ليس من قبيل الوفاء فحسب.. وإنما من قبيل المصداقية العالية.. كان أبي أنموذجاً للشخصية العربية.. في أناقته وترفعه وحبه للناس.. وتكريسه وقته وماله لفض النزاعات.. وتعلمت منه أن أنحاز دائماً للضعيف، فإذا تخاصم لديه فقير وغني فهو مع الفقير، وإذا تخاصم لديه رجل وامرأة.. فهو مع المرأة، وإذا تخاصم أمامه كبير وصغير.. فهو مع الصغير. تعلمت منه.. أن أكون دائماً نصيراً للضعيف المهزوم.. وأن أكرّسَ كل ما لدي من قوة أو مال.. لمؤازرة المظلوم.. وكان رئيساً لنقابة الحلاقين في القدس. ومن ثم غدا تاجراً معروفاً.. ولشدة أناقته.. وقوة حضوره، وهيبته، وشخصيته.. وكرم أخلاقه كانوا يطلقون عليه لقب "البرنس".

أما الوالدة فكانت آية من آيات الجمال.. عرفها أهل القدس بلقب الشامية.. فكانوا يقولون.. الشامية راحت.. أو الشامية جاءت.. وزادها جمالاً عقلها وتدبيرها، وإخلاصها وحبها لأسرتها.

في مدرسة هذين الأبوين الكريمين تعلمت الصدق والالتزام والأدب والأخلاق والوطنية الصادقة.

"وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه"

ويرسم الابن البار عطا.. صورة رائعة لوالده فيقول:

كان والدي كأنه فرانك سيناترا "يلبس الحرير" في حلة بيضاءَ أنيقة، وكان يقتني مجموعة من السيارات، وكان كريم الأخلاق لم يتكبر أو يتعالى يوماً، ولم يتبجح أو يعلو على الناس.. كان متواضعاً.. مسالماً.. لم يبطش أو يسيء.. فإذا أطل "أبو كايد" فإن يمشي الهوينى. بشنباته السود.. وشخصيته الرائعة.. وحذائه اللامع.. وكان بطبعه قليل الكلام.. سكوتاً، لا يطلع من فمه إلا الكلمة الطيبة.. وكان معطاء، لم يقصده محتاج إلا وخرج من عنده مجبور الخاطر حتى لو دفع آخر قرش في جيبه.

عندما خرجت من السجن.. كان عمري ثلاثين سنة.. كنا نقيم في شعفاط.. وكان أصدقائي يترددون على البيت لزيارتي ولكنهم.. ما يلبثون أن يعقدوا صداقات حميمة مع والديّ.. كان أبي وأمي يتمتعان بكاريزما آسرة.. وحضور إنساني.. وأخلاقي رفيع، وجاذبية أبويّة، ومودة وتواصل مع الناس.. تجعلني حتى الآن في حالة نشوى وانبهار وأنا أتذكرهما رغم أنه مضى على رحيلهما حوالي ثلاثين عاماً.

هؤلاء أساتذتي فكيف تريدني أن أكون

أنجب والدي عشرة أبناء.. خمسة ذكور وخمس بنات، وفي سنوات الصِّبا الباكر ألحقني والدي بمدرسة صغيرة "مدرسة الست بهيجة".. وكانت في شارع الرشيد، ومن ثم في الشيخ جراح، وعندما أراد والدي إدخالي المدرسة في شعفاط.. استدعاني المدير وقال لوالدي:

- هذا الولد ذكي.. أنصح بإدخاله مدرسة خاصة.

وهكذا التحقت بمدرسة المطران طالباً في الصف الثاني الابتدائي.. وكانت مدرسة المطران في ذلك الوقت مدرسة متميزة، لا يلتحق بها إلا أبناء العائلات الكبيرة، وكان ذلك عام 1961، وكان مدير المدرسة له رتبة دينية هي "دين" بالانجليزية واسمه هارولد أتكنز.

وأذكر من أساتذتي في تلك الفترة المعلمة "مارغو" مدرسة اللغة العربية، والأستاذ يحيى هندية مدرس الدين الإسلامي، ومن المفارقات أني عندما عملت بالتدريس في ذات المدرسة.. أصبحت زميلاً لمارغو ويحيى.

وكان الأستاذ عطية مصاروة قد شغل منصب مدير لمدرسة المطران "15" خمسة عشر عاماً، وعندما تخرجت من جامعة بيرزيت أرسل في طلبي، وألحقني بالهيئة التدريسية. وقد قبلت هذه المهمة.. من قبيل الوفاء، واعترافاً بفضل المدرسة التي ربتني، وغرست في نفسي قيم الوفاء والانتماء، وعلمتني أن أسد الدين لمن مد يده إليّ يوماً. ويرجع الفضل في صمودي في السجن، وثباتي على مبدئي.. إلى هذه القيم التي تربيت عليها في المدرسة والبيت.

قل لي من هو معلمك .. أقول لك من أنت

ومن الأساتذة الذين تركوا في نفسي أثراً لا أنساه، الأستاذ الكاتب الصحافي إبراهيم دعيبس.. كان يومها شاباً صغيراً، ولكنه كان صاحب شخصية مميزة.. لم يكن معلماً تقليدياً، كان يمتلك المبادرة والإبداع، وكانت لديه دائماً القدرة على الابتكار الفكري والتحدي العقلي، وكان يرحب بالمناقشة ويحترم الرأي الآخر، وقد غرس في نفسي حب الكتابة والتعبير من خلال مقالات قوامها الفكر.. والتجديد، لا الحفظ والترديد.. وأذكر أني كتبت يوماً موضوع إنشاء اعتمدت فيه على ما سمعته أو قرأته.

يومها.. عنفني بشدة.. وقال.. ما هذا يا عطا؟ أين تفكيرك.. أين شخصيتك.. أين رؤيتك ورؤاك.

كان منهجه في النقد والتقويم يقوم على احترام الابتكار والعقل والإبداع. أما جبران خوري.. فكان طرازاً فريداً من المعلمين.. كان يستطيع أن يُدَرِّس العربية والجغرافيا والتاريخ، وكان يحمل بكالوريوس في الكيمياء ويتقن خمس لغات، وكان شاعراً وناقداً وأديباً. ومن شدة ولائي وحبي للأستاذ جبران خوري فإني ذهبت لزيارته في ثاني يوم من خروجي من السجن.. وكنت قد أمضيت أربعَ عشرة سنة في الاعتقال.. وأول ما فكرت فيه هو أن أقدم باقة وفاء وولاء لأستاذي جبران خوري فذهبت إلى زيارته في جفنا.

ومن معلمي مدرسة المطران الذين تأثرت بهم مستر "راست" وهو انجليزي من يوركشاير.. وكان يُخرج لفريق التمثيل في المدرسة الذي كنت احد أفراده مسرحيات شكسبير بلغتها الأصلية ومنها هملت وماكبث وتاجر البندقية وروميو وجولييت وغيرها.

ليس صدقة أن أكون ليبرالياً ديمقراطياً

هؤلاء المربون.. هم الذين كوّنوا شخصيتي.. فكانوا امتداداً لتربيتي البيتية، وليس صدفة أن أكون ليبرالياً ديمقراطياً أتبنى وجهة نظر المظلوم، وأناصر الضعيف، وأنحاز إلى الحق، وأناصر الفقير، وأبذل آخر نقطة من دمي ليقول الآخر رأيه دون خوف أو تراجع.. أبي وأمي وأساتذتي هم الثالوث المقدس في حياتي.

وعندما أستذكر فترة الدراسة في المطران.. أسترجع أيامً جميلة.. كان النشاط المدرس اللامنهجي في ذروته.. وكانت هناك أندية مختلفة، للثقافة، والرياضة، والشطرنج، واللغة الانجليزية، واللغة العربية.. بل كان هناك نادٍ للمنطق والشطرنج.. وكنت أشارك في معظم هذه النشاطات.

"أصبح عندي الآن بندقية"

كان التفوق في الدراسة هدفاً من أهم أهدافنا، وكانت النشاطات اللامنهجية.. تتيح لنا فرصة التفوق والإبداع. ورغم صغر سني.. فقد كنت طالباً مشاغباً.. وكنت أتأمل ما حولي ومن حولي.. متسائلاً.. لماذا يحتل الآخرون وطني.. ولماذا يغتصبون أرضنا وحقوقنا.. ولماذا يقتلون.. ويشردون أبناء شعبي.

كانت التساؤلات تنقلب إلى مناقشات.. وإلى جدل عنيف بيني وبين أصدقائي.. ومن ثمّ كان القرار..

يجب طرد هؤلاء الغزاة..

ولكن كيف..؟

بقوة السلاح.

كانت المعادلة بسيطة وواضحة وصريحة.. تحتاج فقط إلى شجاعة وقوة ورجولة وإيمان.. إن مبادئ الأسرة.. ومبادئ المدرسة ومبادئ الثقافة السليمة.. كلها تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي.. أنك إذا أُهنت يجب أن تقاتل.. وأي إهانة أبلغ وأفظع من الاحتلال.

كنا ثلاثة .. وكان القرار

قررت أنا واثنان من رفاقي إبراهيم سعادة، ومعتز الدجاني أن نشكل تنظيماً سرياً.. وقد قمت بنفسي بكتابة إستراتيجية هذا التنظيم الذي انضم إليه آخرون.

كنا يومها طلاباً صغاراً في الصف الحادي عشر.. بيننا وبين الجامعة.. شبر أو أقل ومع ذلك.. كان القرار.. وقمنا بتأمين السلاح، كما قمنا بعمليات عسكرية وسياسية وإعلامية بمبادرات على المستوى الوطني وكان تفكيرنا مستوى من الفكر الماركسي.. وكان ميلاد هذا التنظيم يوم 1970/1/18م.

ومما جعلنا نحث الخطى إلى الأهداف النضالية أننا خضنا في المدرسة تجربة هامة.. فقد قررت إدارة المدرسة طرد زميل لنا يدعى "إبراهيم" وكانت المخالفة التي ارتكبها هذا الطالب لا تستدعي هذا العقاب القاسي.. ومن ثم.. تصدينا لإدارة المدرسة ونظمنا إضراباً وصممنا على تعطيل الدراسة إلى أن يعود إبراهيم.

ولكن مدير المدرسة لم يتراجع.. فقد أغلق الفصل وطرد جميع طلابه.. ولم يسمح لأحد بأن يعود إلا بعد أن يحضر ولي أمره ويكتب تعهداً.

واتصل الطلاب بوالدي.. ووعدهم بالتدخل.. وأخيراً.. تم تسوية الموضوع.. وكنت آخر طالب.. يدخل الفصل بعد إبراهيم.

ماذا يحتاج منا الوطن؟

فجّر هذا الحادث أحاسيس الثورة في نفوسنا.. وأطلق تساؤلات عديدة..

ما الذي يحتاجه وطننا؟

ماذا نريد أن نكون..؟ وما جدوى التعليم؟

هل يحتاجنا الوطن كمتعلمين أم كرجال..؟

وما جدوى أن تكون متعلماً وأنت تفتقد إلى الرجولة والحرية والكرامة.. وإرادة التقرير.. والعزة والشموخ

من هو عدونا الحقيقي..؟

- إنهم الجيش والشرطة.. يجب أن نتحلى بنبل الفارس المقاتل وإنسانيته، فلن يمس سلاحنا أي مدني..

يجب أن نحافظ على طهارة السلاح.. حتى لو أن العدو دنس هذه الطهارة وكسر المبادئ الإنسانية والخلق الكريم. وكنا نقرأ.. ونفكر ونتناقش.. قرأنا ماركس ولينين، وجورج حبش.. وقرأنا عن جيفارا.. وهكذا وجدنا تطابقاً بين أفكارنا وبين الجبهة الشعبية.. فكنا جنوداً أوفياء في صفوفها.

اعتقلت وأنا في السادسة عشرة من عمري

وفي بادئ الأمر تم اعتقالي على خلفية الاتصال بالجبهة وتنظيم خلايا ثورية، ولم يكن الاتهام يتطرق إلى الكفاح المسلح وحكمت بالسجن لمدة سنة ونصف، ولكن تطورات لاحقة بعد سنة من اعتقالي وخارجة عن إرادتي أدت إلى كشف المجموعة التي خلفتها ورائي .

وتعرضت مثل رفاقي إلى ألوان من التعذيب.. وكان الضابط الموكول إليه تعذيبنا يدعى أبو هاني.. ورغم شراسته وقسوته.. وبطشه. لم يستطيع أن ينتزع مني إلا اعترافاً في ثمانية أسطر.. وقد أخذت كل القضية على عاتقي وأعفيت باقي رفاقي من كل التهم.

وعندما أطلعت محاميتي فليتسيا لانغر على هذه السطور قالت لي: إنني لم أصادف أي إفادة بجودة وذكاء إفادتك.

في السجن صراع إرادات

في السجن تعلمت اللغة العبرية في زمن قياسي، وكنت أستطيع أن أفهم كل ما يدور حولي خلال التحقيق، وأستطيع أن أقول إني صمدت بصورة بطولية.. كنت أقول لنفسي.. لن يهزموني.. أهم شيء.. أنني لم أسلم أي سلاح، ولن أعترف على أحد.. ورغم كل شيء.. فقد حكموا علي .. بعد معركة العبور في أكتوبر عام 1973.. وبعد أربعة أيام فقط بمؤبدين وخمسة عشر عاماً.

ألقوا بي في الزنزانة 127 في سجن الرملة لأن عمري كان اقل من 21 سنة.. كنت عندها قد بلغت السابعة عشرة من عمري.. ولذلك أخذت أطالب بان أذهب إلى قسم "ج" حيث هناك شباب القدس ممن هم فوق الواحد والعشرين عاماً.

ولكنهم لم يستجيبوا لي.. وذات يوم سمعت أصواتاً حولي بالانجليزية والفرنسية، فأدركت أن الصليب الأحمر موجود فأخذت أصرخ طالباً أن يروني..

وعقدت اتفاقاً مع إلياس "الرهيب" مدير السجن ألا أكون سبباً لأي مشاكل على أن يدعني أمارس الدور السياسي الذي أومن به.

لقد أمضيت تسع سنين في سجن الرملة.. وخمس سنين في سجن نفحة.. ولا أقول إنها كانت سنوات سعيدة.. أو سنوات عادية.. كانت فترة عذاب وألم معجونة بالنزيف والقهر والمعاناة.. ولكني عرفت كيف أروض نفسي.. وأتعايش مع الألم والقهر وظلام السجن وظلم السجان.

بالثقافة والعلم والقراءة .. نضيء شموع الأمل

هذه الفترة من حياتي كانت فترة ثقافة وعلم ونضوج.. وتأمل. كنت أمضي اثنتي عشرة ساعة في القراءة والكتابة والتأمل والترجمة.

كنت اشتغل على نفسي 12 ساعة كل يوم.. قرأت، وكتبت، وتعلمت اللغات، درستُ، ودَرَّست آخرين وترجمت كتباً ونسخت آلاف الصفحات بخطي الجميل.. كنتُ أحياناً أنسخ كل يوم مائة صفحة.. وكنت أحاول دائماً أن اضرب الأرقام القياسية في الدراسة والكتابة والنسخ وتعليم الآخرين. أتقنت:

الانجليزية

والفرنسية

والعبرية

وتعلمت قليلاً من الاسبانية

وإلى حد ما الروسية.

ولكن أعظم لغة أتقنتها هي لغة الإرادة.. صلابة الإنسان الثائر.. الواعي.. المثقف.. الملتزم.. المؤمن بالمبدأ.. الحريص على أن يسود ميزان الحق حتى لو لفظ آخر أنفاسه.. هذه اللغة- لغة الإرادة هي التي قهرت بها السجن والسَّجان والظلم.. والعبودية.. والاستغلال والبطش.

بالدخان .. أثريت المكتبة الفرنسية

أما كيف تعلمت اللغة الفرنسية.. فلذلك قصة.. ذات يوم أحضروا لنا شاباً يهودياً.. مجرماً جنائياً كان غنياً.. وكان "فأر" قراءة، كان يشتري على الأقل عشرين كتاباً في الأسبوع كلها من أُمهات الكتب الثقافية العالمية باللغة الفرنسية.. وكنت في حالة ذهول وحسرة.. الكتب موجودة.. والثقافة في متناول اليد، ولكن اللغة هي العقبة.. ولذلك كان قراري.. الذي أقنعت به مسؤولي التنظيمي في السجن عبد اللطيف غيث.. وبدأت أتعلم اللغة الفرنسية.

أتقنت الفرنسية في وقت قياسي في أحدَ عشرَ شهراً بمعدل ساعة في اليوم بل إني ترجمت في الشهر الثاني عشرة كتبٍ منها كتاب "حرب الشعب جيش الشعب" الذي كتبه الجنرال جياب قائد قوات فيتنام الشمالية في معركة "ديان بيان فو". وبعدها صرت بمثابة دارٍ للنشر.. في كل شهرين أصدر كتاباً: أترجمه وأنقحه وأعده في نسختين بخط يدي.

وكيف أتقنت اللغة العبرية

كانت معرفتي للغة العبرية لا بأس بها على مستوى المحادثة.. ولغة الشارع.. أما اللغة المقروءة لغة الكتابة.. والصحافة فلم أكن أتقنها.

وأثناء حرب أكتوبر كانت إدارة السجن تسمح لنا بسماع نشرات الأخبار بالعبرية، ولذلك صممت على إتقان العبرية، فتعلمتها.. وأصبحت مسئولاً عن إصدار نشرة يومية مترجمة باللغة العربية.

وكان معظم الرفاق قد اعتقلوا وهم في سن صغيرة، ولم يكن يحمل درجة جامعية إلا ثلاثة فقط وهم:

عمر القاسم بكالوريوس لغة انجليزية.

عبد اللطيف غيث بكالوريوس تربية رياضية.

وليم نصار وكان يحمل شهادة من اليسوعية في لبنان.

وفي مدرسة السجن تعلمنا التثقيف الجماعي.. تعلمنا القيم والتضامن، والتكافل، والعطف المتبادل، والتواصل الوجداني.

جهنم نفحة لكسر القيادات

توصلت إدارة السجون إلى خطة جهنمية لكسر إرادة الحركة الأسيرة.. فاختاروا خمسةً وعشرين أسيراً تقريباً من كل واحد من السجون الثلاثة الأساسية وهي:

سجن الرملة

سجن السبع

سجن عسقلان

وفي 1980/5/2 تم ترحيل هؤلاء السجناء.. الذين تم اختيارهم بناء على صفتهم بأنهم يمثلون:

القيادات السياسية

القيادات الفكرية

القبضايات

وتم ترحيلهم إلى سجن نفحة الصحراوي.. الذي أقيم بصورة خاصة، ووفق نظام يفتقر إلى الإنسانية.. فهو في منطقة صحراوية منعزلة، في مبنى مغلق بالحديد والصاج.. وفي درجة حرارة عالية ويسوده القيظ والرمال في الصيف. لقد جمعوا هؤلاء الأسرى "ذوي الرؤوس الحامية" كما كانوا يطلقون عليهم.. وكان الهدف تطويعهم، وتركيعهم، فإذا تم لهم ذلك فإن بقية الأسرى ليسوا مشكلة.

دخلنا عراة.. كما ولدتنا أمهاتنا، وتعرضنا للضرب الشديد.. ولكن ما أسلمني إلى موجة قاسية من الحزن والألم والقهر.. هو أنهم حرقوا كل أشيائنا.. ومن ضمنها تسعين دفتراً.. كتبت فيها ما أعتقد أنه ذوب نفسي.. وكياني.. وخلاصة ثقافتي في تجارب السجن. وطوال شهر كامل وأنا أمضغ الحسرة والألم وأتجرع مرارة الهزيمة. ولكني بعد ذلك قلت لنفسي:

- لقد أحرقوا دفاتري ولكنهم
- لم يحرقوا وجداني
- وضميري
- وعقلي
- وشخصيتي
- ومعارفي.. وأفكاري ورؤاي، وهمسات قلبي
- لم يحرقوا طموحي وإنسانيتي.

تنبأت له بـ"نوبل"

فقررت أن أواصل التحدي.. وأن أبدأ من جديد. وعندما حصلت على كتاب "مائة عام من العزلة" لغبريئيل غارثيا ماركيز وهو أديب عالمي من أمريكا الجنوبية.. قمت بترجمته عن الانجليزية، ولما فرغت.. رفعت الكتاب بيدي اليمنى وهتفت:

جائزة نوبل.

وقد تحققت نبوءتي.. فبعد عام أو أكثر فاز هذا الكتاب العالمي بجائزة نوبل.

في سجن نفحة تعرضنا لألوان من العذاب والقهر والإذلال ولكنا تحملنا ذلك بشجاعة وصبر.. بل إننا أضربنا ثلاثة وثلاثين يوماً عن الطعام.. كان ذلك في 1980/7/14.

صمدنا..

وقلنا لهم:

- أنتم تريدون أن تكسروننا ولكننا سنكسركم.

ونتيجة لصمودنا البطولي.. تغيرت تصرفات السجانين.. لأنهم أدركوا.. أنهم أمام رجال.. أمام طاقات قوية.. صلبة.. أمام إرادات تستعصي على الكسر.. إرادات مسلحة.. بالحق والثقافة والالتزام والشجاعة.

هذه القيم التي جسدها رجالنا، جعلت السجانين يدركون أنهم أمام امتحان عسير مع ضمائرهم.. فهم لا يستطيعون أن يضطهدوا هذه النماذج النبيلة من البشر التي تنحني أمامها الرؤوس.. تقديراً وإجلالاً لصمودها وثباتها.. واستهانتها بالموت نفسه في سبيل المبدأ والمجموع.

مقايضة لم تتم

في أوائل السبعينيات.. بعد أن قضي على الثورة نتيجة أحداث أيلول وجرش.. وتراجع المد الثوري.. وفقدنا قواعدنا في الأردن

قررت السلطات الإسرائيلية أن تلجأ إلى حيلة لتفرغ بها السجون من المناضلين، فعرضت علينا أن نسلم هوياتنا.. ونوقِّع على أوراق معينة، ومن ثم يتم إطلاق سراحنا على أن نغادر الأراضي الفلسطينية، وعندما علمت والدتي بذلك قالت:

- أمامك فرصة.. لتنظيم حياتك من جديد، انه عرض معقول.

قلت لها:

- يا أمي.. هل زرتني يوماً فوجدتني حزيناً مقهوراً يائساً.. على داري سوف أعود.. لنفس سريري.. لنفس شقتي وغرفتي.. سأعود.. ولا بديل لي عن ذلك.

وقد تم ذلك..

ففي يوم 1985/5/20

تم الإفراج عن 1150 أسيراً فلسطينياً مقابل ثلاثة جنود إسرائيليين وهي المعروفة بصفقة جبريل.

وكنت واحداً من الذين أفرج عنهم لأعود إلى غرفتي وسريري وأمي وأبي في شعفاط.

(2012/4/20)

انتصار الوزير

سنوات الصبا الغض وباكورة النضال

التقت بابن عمها .. وشاركته في الثورة والحياة

من غزة.. إلى عمان، وبيروت ودمشق والكويت وتونس الخضراء

إذا التاريخ سيكتب يوماً يجب أن يكتب الحقيقة وأن يقول كلمه الحق، شهدت المقاومة الفلسطينية تاريخاً حافلاً بالبطولات، وشارك فيها عديد من الشخصيات الفكرية، والثقافية، وكتب تاريخ المقاومة السياسية، من المشاهير من كتاب العالم ولكن يجب أن لا ننسى أن على رأس هذه المسيرة السيدة المناضلة العظيمة أم جهاد، الأحداث التي لم تذكرها أم جهاد في مقابلتها المتواضعة، الحديث عن أم جهاد له قدسية، سيرة أم جهاد هي سيرة الأم الشابة التي احتضنت الثورة، وكان المناضلون وأبناء الثورة أبناءها، احتضنتهم في بيتها المتواضع، في الجزائر حيث كان بيت الأخت أم جهاد والأخ أبو جهاد يستقبل ليلاً نهاراً الشباب والطلاب الفلسطينيين والجزائريين .

ذكريات أليمة

سيرة أم جهاد سيرة عطرة يشهد لها تاريخها النضالي وتضحيتها. أن تكون زوجه قائد، ناهيك عن زوجات العظماء والحكام، كانت أم جهاد وراء هؤلاء لرجال العظماء الذين أقاموا الثورة، بل كانت أمامهم. لقد قادت الحركة حركه فتح، أثناء وضع الرئيس حافظ الأسد القيادة الفلسطينية كلها في السجن، أبو عمار، أبو جهاد، أبو إياد، وأبو صبري، لقد قادت السيدة أم جهاد حركة فتح مدة الأشهر التي كانوا بها في السجن، وكانت تقود المقاومة إلى الأرض المحتلة ولبنان وكل الأقطار العربية، وتقود الحركة في كل العالم، للشبيبة والطلبة كانت هي المرجع لكل تنظيم فتح في العالم، لا يمكننا إلا أن نؤدي التحية إلى هذه الإنسانة العظيمة، وأمام سيرتها.. كانت أم جهاد تتمتع بارتداء الثورة الفلسطينية بنفوذ كبير، أدركت ورفاقها بالسجن أن عليها أن تكمل المسيرة، وتحمل الراية. كانت أول امرأة عربيه تقود الثورة من دمشق أثناء وجود القيادة الفلسطينية في السجن، من هذه الثورة العظيمة خرجت شخصية المرأة القوية أم جهاد وكانت أم جهاد قدوه للمناضلين، منهم دلال المغربي، التي تشربت من تعاليم ونضال أبو جهاد خليل الوزير. أم جهاد هذه المرأة القوية ابنة غزه التي أصبحت رمزاً لكل المناضلات الفلسطينيات مثل ليلى وفاطمة البرناوي،

ومريم الشخشير. من هذه المعاناة خرجت شخصيه المرأة التي امتدت جذورها عميقاً، مثل جذور زيتون فلسطين، أم جهاد تقود الثورة من بيتها المتواضع بالشام. كانت هذه الأيام قاسيه بمثابة الدهر على أم جهاد، في وجود القيادة في السجن عليها أن تأخذ القرارات المصيرية الصعبة، وفي ذلك اليوم المشؤوم وقعت المأساة والتراجيدية المؤلمة، وبينما كان البيت يعج بالمقاتلين من الحركة، والاجتماعات تدور حول القضايا الساخنة والتنظيم والمقاومة، انصرف الجميع وكانت أم جهاد تودع ضيوفها، وفي ثوان كانت صرخات العمارة من كل الجهات الناس تصرخ، الجيران يبكون ويصرخون، صراخهم وصل السماء، لقد وقع ابن أم جهاد من الشرفة من الطابق العالي، كان عمره ثلاث سنوات، رحمه الله كان الملاك الصغير، اسمه نضال. كانت أم جهاد قد توجهت للقاء حافظ الأسد حامله مأساتها، لكي يسمح لأبو جهاد للخروج من السجن لتشييع ابنه نضال، وهكذا لقد طلبت من حافظ الأسد تحرير الإخوان، خرج أبو جهاد لتشييع ابنه الطفل، وأفرج حافظ الأسد عن أبو عمار، وأبو إياد، تلبيه لمطلب أم جهاد الحزينة علي فقدان ابنها.

منذ فجر الثورة

في فجر الستينيات كانت الثورة الفلسطينية في ربيع عمرها.. كانت تضج بالحيوية والنضارة والفداء.. حركة يفوح منها أريج البطولة، وعطر الوفاء، وشذا الرومانسية النضالية المشبعة بالجسارة والشجاعة، المتطلعة إلى شرف الشهادة من أجل الوطن.. دفاعاً عن الحق والخير والعدل والجمال.

لقد ذكرتني بهذه الصفحات الوضاءة الجميلة الرائعة، الأخت انتصار الوزير.. ذكرتني بتلك الطالبة الصغيرة في مدرسة الزهراء الثانوية، التي كان صديقنا صلاح خلف.. المعلم الشاب أحد مدرسيها.. ذكرتني أم جهاد.. بفترة صباها الباكر وهي تلميذة تلبس المريول الرمادي، محتضنة حقيبتها المدرسية وهي تغدو إلى مدرسة الزهراء الثانوية في غزة، والتي كانت في ذلك العهد الذي ترعرع في أحضانه جيل رائع من أبناء الثورة والمناضلين.

الصبية .. قلب خافق بحب الوطن

إن أجمل ما في حياة رفيقة دربي انتصار الوزير.. هي تلك المرحلة المبكرة من حياتها.. عندما كانت طالبة في مدرسة الزهراء الثانوية في غزة.. ذلك أن الشجاعة والجرأة تكتسي بهالة من البطولة عندما تكون في سنوات الصبا والشباب. في هذه المرحلة العمرية المبكرة، عندما تصادف القلب الجسور والجنان الثابت والعقل اللبيب.. يأخذك الانبهار وتدرك أنك أمام شخصية جذابة.. تأسرك.. بقوة.. لأن الجمع بين الجرأة والصبا.. يعطيك مزجاً نادراً لبطولة واعدة.

وكانت الحركة الوطنية محفوفة بالمخاطر.. مخاطر الاعتقال والمطاردة والتعذيب والقهر، وبالنسبة للمرأة.. فإن حجم المغامرة يكون كبيراً بسبب العادات والتقاليد، والحصار المضروب على حركة الفتاة.. وكل من تتصدى للعمل الوطني.. تكون قد اجتازت كل الخطوط الحمراء.. وعبرت حواجز الخوف والتردد على المستوى الإنساني والنضالي والاجتماعي، ووقفت في وجه العواصف بشجاعة وبسالة من اجل عيون فلسطين.

من الزهراء .. إلى الفيحاء

ولدت انتصار مصطفى محمود الوزير في حي الدرج في مدينة غزة يوم 1941/12/12، وكان والدها من شخصيات مدينة غزة المعروفة، خاصة وأن عائلة الوزير عائلة عريقة متعددة الفروع فمنها من استوطن في غزة، ومنهم من أقام في الرملة، وحيفا، ويافا..

تقول أم جهاد:

كان أبي مربي نحل، درس الزراعة في معهد خضوري في طولكرم، وتخرج ليمارس خبراته الزراعية في زراعة الدخان، وتربية النحل، ومن ثمَّ شغل وظيفة حكومية كمرب للنحل.. وما أذكره عن والدي أنه كان طاقة فعّالة، نشيطاً محباً للعمل، فكان صاحب "حمام السمرة"، وهذا الحمام من الآثار القديمة وهو موجود حتى الآن.

أنجب والدي ولدين، وبنتين.. بينهما عشرة مواليد لم يقدر لأي منهم الحياة.

درست في مدينة غزة وتلقيت تعليمي الابتدائي والإعدادي في المدارس الحكومية.. ومن ثم انتقلت إلى مدرسة الزهراء لإتمام دراستي الثانوية.

كانت مديرة المدرسة السيدة يسرى البربري، وقد كانت رائدة على المستوى التربويّ والوطني.. شخصية قيادية مميزة.. تجمع بين الحزم والحكمة وبعد النظر.. وتضع أمام ناظريها دائماً مسئولية هذا الجيل من الفتيات اللواتي على عاتقهن تقع تربية النشء، وبناء المجتمع الفلسطيني عندما يتركن المدرسة ليصبحن أمهات.

وبعد حصولي على الثانوية العامة، انتقلت إلى دمشق لالتحق بالجامعة السورية طالبة في كلية الآداب قسم تاريخ وبذلك.. أكون قد بدأت مشواري الدراسي في الزهراء لأكملَه في دمشق الفيحاء.

براعم الوطنية تتفتح في العهد الناصري

عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، احتلت القوات الإسرائيلية قطاع غزة، وكانت هذه الفترة من أخصب وأروع الفترات في تاريخ النضال العربي حيث أشعل عبد الناصر جذوة الوطنية في الشباب العربي من المحيط إلى الخليج، وتفجر بركان الغضب على الاستعمار، وانطلق تيار القومية العربية جارفاً كالسيل وتأججت نيران الثورة والحماس والعروبة في جيل كامل من شباب العرب ممن آمنوا بالناصرية ورأوا في عبد الناصر رائداً للقومية العربية، وزعيماً ثورياً صلباً.. قادراً على التحدي.. وهزيمة قوى البغي والعدوان.. المتمثل في أطراف العدوان الثلاثي.. بريطانيا وفرنسا وإسرائيل.

كنت صبية جريئة .. مندفعة للمشاركة في العمل الوطني

تقول أُمُّ جهاد:

لست معنية بتقديم شريط حياتي بأدق التفاصيل.. سأقف معكم أمام المفاصل الرئيسة.. فالرحلة طويلة.. والمحطات متعددة، وما أكثر المواقف والأشخاص.. وما أكثر الانتصارات والانكسارات في حياتي.

عندما بسط الاحتلال قبضته على قطاع غزة لمدة ستة شهور، رفض الأهالي إرسال أولادهم وبناتهم إلى المدارس، ولكن هذا الانقطاع عن الذهاب إلى المدرسة أتاح لي فرصة الإسهام في مقاومة الاحتلال.. فكنت أقوم بتوزيع البيانات والمنشورات، وأوصِل أوامر القيادة إلى الشباب.

وفي آذار/ مارس عام 1957.. رحل الاحتلال.. ومن هنا.. ثارت كثير من الأسئلة لدى الشباب المثقف وكنت واحدة منهم..

- لماذا نحن شعب أعزل؟
- لماذا نفتقر إلى السلاح والقوة لندافع عن أنفسنا؟
- جاء اليهود ورحلوا.. ولم نفعل شيئاً. لماذا؟

كانت هذه الأسئلة.. تولد حالة من السخط والثورة في نفوس أبناء القطاع.. وخاصة المثقفين الذين يهمهم.. أن يكونَ أبناءُ شعبهم.. له حق الحرية والحياة.. وحق الدفاع عن النفس.

عودة الإدارة المصرية

عندما رحل الاحتلال البغيض عن سماء وأرض قطاع غزة.. ظهرت في الأفق مؤامرة استعمارية لتدويل قطاع غزة.. ولكن شعب القطاع اندفع في موجة من المظاهرات العنيفة.. مطالباً بعودة الإدارة المصرية.

وأذكر أني شاركت في هذه المظاهرات التي تواصلت إلى أن تم عودة الإدارة المصرية في 14 آذار عام 1957.. وبدأت تلوح في الأفق الوطني تساؤلات.. ومطالب.. وتوعية للجماهير ورغبة في تدريب الشعب على السلاح.

وفي تلك الأثناء تعرفت إلى أحد معلمي التربية الوطنية.. الذي شعر بأن عندي حماساً وطاقات ومبادرات ورغبة أكيدة في أن أكون عنصراً فاعلاً في التصدي لأعداء وطني.

كان ذلك عام 1955

وكان ذلك المعلم هو الأستاذ فوزي يوسف جبر.

وقد قدّم لي مجلة تحمل اسم "فلسطيننا".. وعندما قرأت هذه المجلة، شعرت أن هناك تنظيماً معيناً وراءها.. وأنّ أسرة تحريرها تمثل جماعة وطنية جادة، وصادقة، خاصة وأن الأفكار الواردة في المجلة كانت تتطابق مع آرائي وأفكاري وتوجهاتي في تلك المرحلة.

وهكذا تم إلحاقي "كنصيرة للحركة".. ومن ثمَّ أصبحت عضوا وفي صيف عام 1959.. كان اللقاء.

شبيه الشيء منجذب إليه

ذات يوم دعاني الزملاء لحضور اجتماع طارئ حيث سيحضر مسؤول مهم من الخارج، ولا بد من الاجتماع به.. وكان ذلك اللقاء ترتيباً قدرياً من السماء.. لألتقي رفيقي وابن عمي.. وأستاذي خليل الوزير. وكان كلام وعتاب.. من طرفه.. ودموع وانفعالات وتأثر من طرفي. كلانا من عائلة الوزير.. ولكنه من مدينة الرملة وأنا من مدينة غزة.. ألم أقل إن عائلة الوزير في كل مدن فلسطين؟

وعندما انتهى الاجتماع.. أصر خليل على أن يوصِّلني إلى بيت أهلي.. والأرواح جنود مجندة.. وشبيه الشيء منجذب إليه.. التقت أفكارنا على أشرف مبدأ.. وأنبل هدف.. وتآلفت أرواحنا.. واتحدت مشاعرنا..

وانتظمت دقات قلبينا على وجيب النضال، وتحقيق الغاية الكبرى.. إن معرفة قوامها التآلف العقائدي أو المبدئي تثمر صداقة قوية.. وإن قرابة تقوم على قدسية المبدأ وشفافية الروح والتوجه.. تثمر حَبّاً عَفاً طاهراً بريئاً.. قادراً على الاقتراب من آفاق الوطنية الصحيحة.

بمرور الأيام تنامت الثقة بيني وبين ابن عمي الشاب خليل الوزير المدرس بالكويت، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت موضع ثقته وكاتمة أسراره، كان يرسل لي جميع رسائله المتعلقة بالتنظيم عن طريق بريدي الشخصي، وكنت أقوم بدوري بتسليمها إلى الزملاء، وأذكر منهم محمد الإفرنجي، وموسى عرفات، والشيخ هاشم الخازندار وغيرهم.

يداً بيد على درب العمل النضالي

عندما تزوجنا.. كان بيتنا في الكويت ملتقى دائم لجميع الإخوة: أبو عمار، أبو مازن، أبو إياد، هاني الحسن، فاروق القدومي.. وكافة الأصدقاء والمناضلين.

ولا أبالغ إذا قلت إن ميلاد حركة فتح تنظيماً واسماً وهدفاً ولدت على يد الرواد في بيتنا في الكويت ونحن لا نزال في شهر العسل.

الحياة على حافة السيف

إن بعض الناس يتصور أن الحياة على حافة الخطر مغامرة لا داعي لها.. فما أسهل أن يجدف الإنسان بقاربه بعيداً عن العواصف والتيارات ليعيش حياته هانئا سعيداً.

هذا المنطق لم يكن مقبولاً على أبو جهاد.. ولم يكن مهضوماً بالنسبة لي.. إن الحياة بلا مبدأ وبلا قضية.. حياة فارغة جوفاء.. حياة تفتقر إلى الروح والحرارة والسعادة.. إن أعظم سعادة في الحياة هي أن تعيش من أجل مبدأ.. وأي مبدأ أعظم وأروع وأنبل من أن تحارب من أجل وطنك..

كان خليل الوزير مسكوناً بحب فلسطين، وكان شخصية قيادية فذة يضع في حساباته أن يواجه الرصاص والاغتيال أو الاعتقال.. كانت فلسطين هاجسه الأول والأخير.. منذ أن كان ينظم المجموعات الفدائية.. ويعبر بها خط النار في عمليات فدائية تتسم بالشجاعة والجرأة.. كان مقاتلاً بالفطرة.. وقد أشعل في نفسي جذوة النضال.. وحبب إلى روح المغامرة.. والاندفاع.

شهر العسل مجرد ذريعة

لم نكن نملك الأوراق التي تسمح لنا بدخول لبنان، أو مصر، أو الكويت، أو الأردن.. ولكن أبو جهاد بذكائه وبعد نظره كان قادراً على أن يتخطى كل العقبات.. ويدخل إلى مختلف المواقع والمدن التي فيها قواعد للتنظيم مستغلاً شهر العسل.. فنحن زوجان شابان.. سنمضي بضعة أيام ثم نعود.. وبهذه الطريقة.. تم تفقد جميع قواعد "فتح" في المنطقة.

في بلد المليون شهيد

كانت الجزائر نقطة انطلاق للثورة الفلسطينية.. فقد استقال أبو جهاد من التعليم في الكويت وتفرغ للعمل النضالي، وتم بمساعدة أحمد بن بللا افتتاح أول مكتب لمنظمة فتح في الجزائر، وكان ذلك في شهر آذار عام 1963م.

ومن خلال هذا المكتب أمكن توفير معسكرات تدريب للشباب الفلسطيني على السلاح، وتمكن أبو جهاد من إقامة علاقات وثيقة مع معظم الحركات الثورية التحررية في أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية.. وكانت له علاقات وثيقة مع سفارات الصين وفيتنام وكوريا.. وقد نجح في أن ينظم زيارة لوفد من حركة فتح.. للصين.. وكان على رأسه أبو عمار.

وفي بلد الأرز اشتعلت براكين الثورة

من الجزائر انتقلنا إلى لبنان.. وكانت فترة من أخصب فترات النضال الثوري الجاد الحافل بالإنجازات والبطولات.. فلبنان.. موطن الثقافة والفكر والتحرر، ومركز من مراكز الإشعاع النضالي والقومي والفني والأدبي.. وبيروت.. عاصمة الثقافة والفكر.. وموطن الصحافة والإعلام والمفكرين والثائرين.. والحركة الوطنية اللبنانية.. تقف في خندق واحد مع الثورة الفلسطينية.. ولبنان.. الذي أنجب جبران ونعيمة وسعيد عقل والريحاني وإيليا أبو ماضي والأخوين رحباني وفيروز وجورج جرداق وكمال جنبلاط وسعيد فريحة وغيرهم من الأعلام.. لبنان هذا.. كان نصيراً للثورة الفلسطينية.. كان نصيراً للحق والحرية.. ولجنود النضال الفلسطيني الذين يدافعون عن تراب فلسطين المغتصب، وعن حق شعب جنت عليه الصهيونية فشردت أطفاله ونساءه وشيوخه في دروب الضياع.

دمشق .. موطن الحرية والأحرار

لا حدود لحبنا لدمشق الفيحاء.. دمشق مهد الثورة والثوار.. وما أجمل وأصدق ما يقوله فيها أحمد شوقي أمير الشعراء:

"آمنت بالله، واستثبت جَنَّتَهُ   دمشق روح وجنات وريحان"

دمشق.. لها في قلب كل عربيّ حرّ مساحة حب وشجن واسعة.. ولها في كل كتاب من كتب التاريخ العربي فصول رائعة من النضال والثورة والتحرر.. منذ العصر الأموي وحتى عصر المناضلين الأبطال في معارك العصر الحديث..

فتحت دمشق ذراعيها لأبطال وقادة الثورة الفلسطينية، رأت فيهم الجدية والإخلاص والوطنية الصادقة، ولمست في أدائهم روح النضال الحقيقية التي تبحث عن الاستشهاد في سبيل المبدأ..

كانت سوريا محطة هامة.. في تاريخ نضالنا.. فالسلطة الحاكمة تتيح لشبابنا التدريب الجدي على السلاح.. والإعلام.. والتنقلات والحركة الثورية مفتوحة بحرية.. وكنت في تلك الفترة مسئولة التنظيم النسائي.

القيادات في المعتقل

ولكن دمشق الفيحاء.. الثائرة.. الحرة.. المؤمنة بالنقاء والنضال والشفافية تجهمت، وتنكرت للأبطال القياديين، وألقت بهم في السجن، كان ذلك في عام 1969، على أثر حادث أليم راح ضحيته أحد الشباب، فتم اعتقال أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو إياد، وأبو صبري، ومن ثم أوكلت إليّ القيادة.. فاخترت اثنين لمساعدتي، أبو علي إياد، وأحمد الأطرش. واستطعت أن أقود العمل العسكري والتنظيمي والسياسي لمدة شهرين، إلى أن تم الإفراج عن أبو جهاد، وأبو عمار وبقية الزملاء.

وفي الجامعة .. واجهت القمع والاضطهاد

عندما كنت طالبة في كلية الآداب بجامعة دمشق، قسم التاريخ- حدث كالمعتاد خلاف حاد بين القيادة الفلسطينية والحكومة السورية.. وذلك أن القوات السورية حاولت أن تدخل لبنان.. ورأت القيادة الفلسطينية.. أن ذلك يشكل تدخلاً في أمور لبنان.. فرفضت أن تسلم بهذا القرار، وعلى أثر ذلك تم ترحيل القيادات إلى لبنان وإغلاق معسكرات التدريب.

وكان هناك قرار بترحيلي، وفصلي من الجامعة.. ومن ثم تم تخفيف القرار إلى منعي من دخول الامتحان لمدة سنتين.

إن استقلال القرار الفلسطيني له ثمن.. وكثيراً ما كان هذا الثمن.. مطاردةً وقهراً ومحاصرةً وتهميشاً ومصادرة.

ملحمة بيروت عام 1982

من أشرف وأنبل المعارك التي خاضتها الثورة الفلسطينية ملحمة حرب بيروت عام 1982، حيث صمدت الثورة الفلسطينية أكثر من ثمانية وثمانين يوماً في مواجهة الآلة العسكرية الجهنمية الإسرائيلية بكل مقوماتها وأسلحتها.. وطائراتها.

كانت المعارك تجري على مدار الساعة.. وكانت بيروت قطعة من لهيب جهنم.. صمد الأبطال والمقاتلون.. وطاردت الطائرات أبطالنا وقياداتنا من شارع إلى شارع.. ومن موقع إلى آخر.. وصبت الآلة العسكرية الجهنمية جام غضبها على بيروت وهي تبحث عن أبو عمار، وتطارده من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، ومن سيارة إلى سيارة، ومن خندق إلى آخر.. وكنا في تلك الأثناء نقوم برعاية أسر الشهداء والجرحى.. ولا شك أن تأمين الجبهة الداخلية وحمايتها.. رسالة هامة قمنا بها في كافة التنظيمات النسائية التي شاركت فيها.. ومن ثم قمنا بدور فعال في حماية الجبهة الداخلية بالتعاون مع المنظمات النسائية اللبنانية.

من بيروت إلى طرابلس

وفي حصار طرابلس المعروف.. كان للمرأة دورها في رعاية الجرحى والمصابين وأسر الشهداء والمقاتلين، ودعم المقاتلين، وتمريض الجرحى.

كان حصار طرابلس مرحلة خطيرة أخرى تخوضها الثورة الفلسطينية، واستطاعت أن تجتاز هذا المنعطف الخطير.. ومن ثمّ كانت مرحلة تونس.. حيث وقع المصاب الجلل باستشهاد أبو جهاد.

وعدنا للوطن .. لمسئوليات جديدة ورسالة متواصلة

بعد توقيع اتفاقية أوسلو.. عدنا إلى الوطن.. وتم تعييني كأول وزيرة.. في فلسطين.. فقد أصبحت وزيرة الشؤون الاجتماعية، وقد شغلت هذا المنصب لمدة إحدى عشرة سنة.

وعندما جرت الانتخابات العامة 1996، رشحت نفسي ونجحت.. في دائرة انتخابية في غزة.. وهذه الثقة من الجماهير الفلسطينية هي أعظم وسام على صدري..

المعادلة المستحيلة

لقد حققت انتصار الوزير المعادلة الصعبة.. في حياة كل إنسان.. عندما كانت طالبة في مدرسة الزهراء.. جمعت بين الدراسة والانتماء.. حملت الكتاب في يدها.. والانتماء الوطني في يسارها.. نالت ثقة معلميها.. بذكائها وحضورها وجسارتها.. وفي سنوات شبابها.. التقت بابن عمها.. وتزوجت القائد الزعيم.. الثائر.. خليل الوزير.. وفي الجامعة السورية نالت الدرجة الجامعية في التاريخ وانطلقت في صفوف الثورة.. تعمل بإخلاص في حقل العمل الإنساني الذي وهبت نفسها له.. وتقود الثورة في الأوقات الصعبة.. وتصل إلى أعماق الجماهير وتنال ثقتها فتنتخب في المجلس التشريعي.. وعندما اختيرت للوزارة.. كانت أول امرأة فلسطينية تشغل هذا المنصب.

ألا يتم..

ليس مستحيلاً أن يعيش المرء حياة سويّة وينتقل من نجاح إلى نجاح، متخطياً حواجز الشوك والصخر والخوف والدم والنار والبارود.

أمُّ جهاد في رأس القائمة

ويجب أن لا ننسى أن على رأس هذه المسيرة انتصار الوزير، الشابة التي احتضنت الثورة في الجزائر حيث كان المناضلون وأبناء الثورة يتوافدون على بيتها المتواضع في الجزائر العاصمة وحيث كان الأخ أبو جهاد يستقبلهم ليلاً نهاراً.

إن مسيرة أمُّ جهاد مسيرة عطرة، يشهد لها تاريخها النضالي، وتضحيتها فهي زوجة القائد ولا شك أن وراء كل عظيم امرأة وكانت أم جهاد هي المرأة العظيمة وراء القائد الفذ الشهيد خليل الوزير.

وتأخذني الذكريات إلى تلك الليلة البعيدة في تونس يوم 16 نيسان 1988، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كنت مع أبو جهاد على خط الهاتف وأبلغته أن أسرة المكتب الفلسطيني في القدس المتخصصين في التقاط وترجمة الصحافة العبرية وهم: علي قعدان ووليد العمري وإبراهيم سجدية، جميعهم أبلغوني بمضمون النشرة التي كنا نرسلها لعشرات المؤسسات الصحفية ولمكاتب منظمة التحرير بطريقة سرية أن هناك نية حقيقية مبيتة لاغتيال قادة منظمة التحرير.

كان ذلك قبيل ساعات من اغتيال أبو جهاد. كما أن ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس إبراهيم الصوص زوج ابنتي ديانا أبلغ أبو جهاد والقيادات الفلسطينية بأنه على علم مؤكد من قبل الفرنسيين بأن حوادث اغتيال ستجري ضد قيادات هامة في منظمة التحرير.

تأمرون بالبرِّ وتنسون أنفسكم

وعبر هذه المهاتفة قال لي أبو جهاد إنه قد أبلغ جميع مكاتب منظمة التحرير وكوادرها أن يأخذوا حذرهم. كانت هاله ابنتي تنادي وتصرخ أبو جهاد.. أبو جهاد، وتوجهت إلى غرفتها في عتمة الليل اعتقدت أنها تناديني لكي أجاوب على التليفون من أبو جهاد في غرفتها ولكن كانت منهارة والدموع تنهال علي وجنتيها، وبكاء وصراخ، وهي تقول أبو جهاد.. أبو جهاد، لقد اغتالوا أبو جهاد. الجو في البيت كان حزينا وكنا متألمين وغاضبين، وكنا نبكي.. نبكي الإنسان القائد المناضل، الوجه الذي أدخلني إلى عالم النضال وحب الوطن،

رأيت الدموع بعيون زوجي ابن يافا الذي كان قد زاره في بيته المتواضع في الشام أثناء سجني، وتأثر بشخصيته الجذابة وروحه ونضاله وحدثه زوجي عن يافا والرملة مدينة والدته، وحدثه أبو جهاد عن الرملة وطفولته بالرملة، وعن الثورة الفلسطينية وعن العودة والحلم، حملنا حزننا وحملنا وجعنا والصبر الذي علمنا إياه أبو جهاد في المحن وعلمنا القائد كيف نضيء روحنا في الأمل عند اليأس وتوجهنا في الصباح الباكر أنا وابنتاي سهى وهالة من باريس إلى تونس لتعزية أم جهاد وللمشاركة في هذا المصاب الجلل برحيل القائد البطل خليل الوزير.

ولكن القدر شاء بأن يكون أبو جهاد قد استشهد نتيجة العدوان الإسرائيلي الذي قاده باراك في اليوم السادس عشر من ابريل عام 1988.

في ذلك الموقف وجدت أم جهاد متماسكة قوية، رغم المشهد الأليم والفظيع الذي شاهدت فيه أبو جهاد مضرجاً بدمائه، بعد أن اغتالته أيدي الغدر، التقيتها أعزيها فوجدتها قوية منيعة رغم طوفان الدموع الذي كان يتدفق من عينيها، ورغم الصدمة الشديدة، ورغم مشاعر الألم التي كانت تمزق ابنتها حنان والتي شاهدت هي أيضا المنظر المروع وهي كانت لا تزال ابنة الأربعة عشرَ ربيعاً.

وكانت الحكومة التونسية قد حظرت على وسائل الإعلام الوصول إلى موقع الجريمة، فحاولت جهدي أن اشق طريقاً ما لوسائل الإعلام للوصول إلى الحقيقة وذلك من خلال الوصول إلى أم جهاد شخصياً. كنت أريد منها أن تعطي كلمة لإذاعة مونت كارلو لنبيل درويش، وبالفعل نطقت أم جهاد عبارات مغلفة بالأسى، وخارجة من صوت مشحون بالانفعال: أبو جهاد لم يمت، أبو جهاد لا يزال بينكم ولا تزال الثورة مشتعلة بل إنها بدأت اليوم من جديد. وكان لإعلان أم جهاد بدء الثورة من جديد صدى واسعاً في المناطق المحتلة، من غزة إلى جنين حيث ثارت الناس واشتدت الانتفاضة لتشتعل ناراً ولهيباً من جديد.

ومن مواقف العزيزة الغالية أم جهاد تلك الكلمات الرائعة التي وقفت تؤبن فيها شريك عمرها في دمشق أمام حشد من آلاف البشر وكان يقف إلى جانبها جورج حبش الذي ألقى كلمة تأبين مؤثرة في الموقف أثارت المشاعر الحميمة للرفاقية والصداقة التي كان يكنها للمغدور. كانت كلمات أم جهاد مليئة بالقوة والتسامي والفخر، والاعتزاز وهي تجسد شموخ ونبل المرأة الفلسطينية.

(2012/4/27)